من بابل إلى رايخ

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

❖ **الكتاب: من بابل إلى الرايخ**

❖ **المؤلف: محمد صالح عبيدو**

❖ **نوع العمل: رواية**

❖ **الطبعة الأولى** 1440 هـ -2019 م - **القاهرة**

❖ **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

❖ **رقم الإيداع : 2019 / 25806**

❖ **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6754-76-8**

❖ الغلاف: ببلومانيا

❖ تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا

❖ المدير العام: جمال سليمان

❖ العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة

عنوان (2): 38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة

❖ تليفاكس: 00202260610

❖ محمول: 00201208868826 00201065534541 00201210826415

❖ صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

❖ الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

من بابل إلى الرايخ

رواية

محمد صالح عبيدو

www.bbibliomania.com

2019

إهداء

للأعداء، لا للأصدقاء! ما أجملَ أنْ تُهدي عدوّكَ نجاحاً مغلفاً بابتسامة.

إهداءً إلى الّذين انْتظروا سقوطنا فأصَابهم الدوالي!

*****

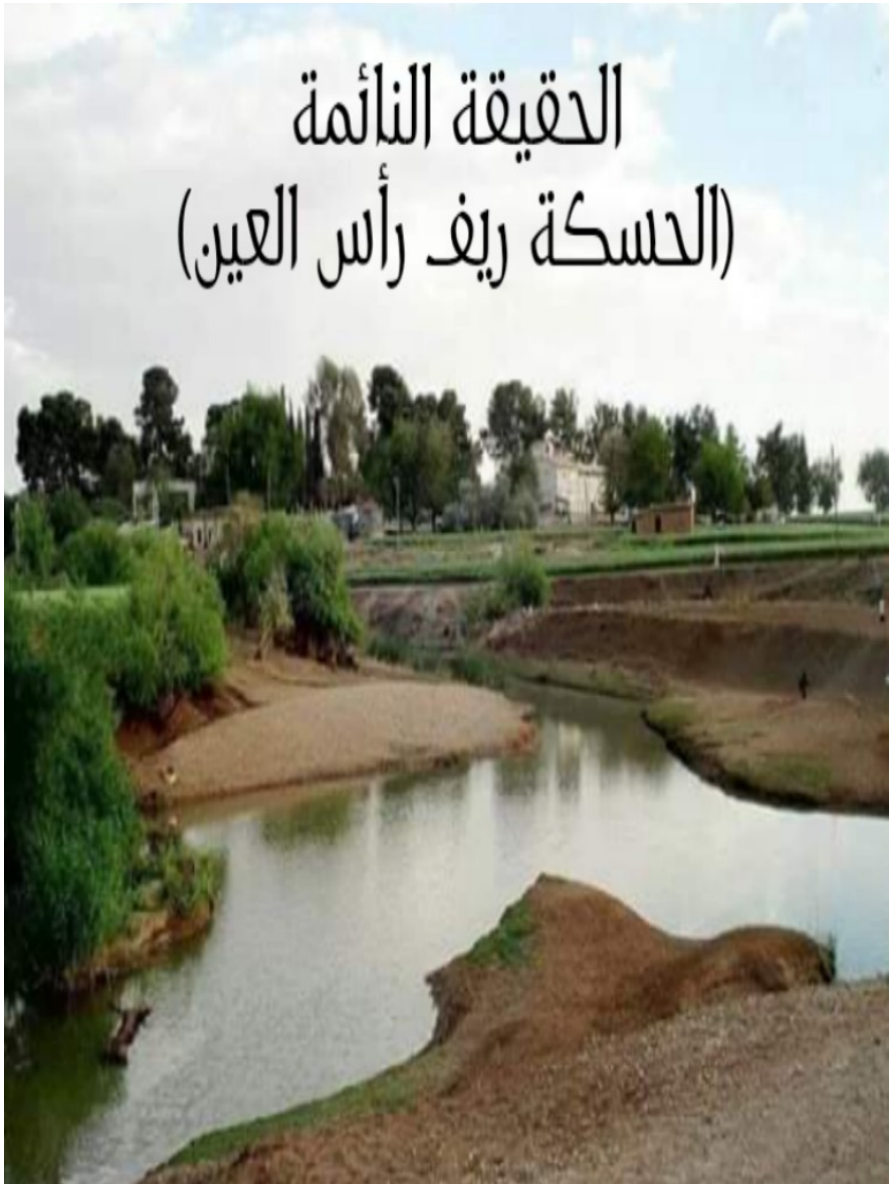
الحقيقة النائمة
(الحسكة ريف رأس العين)

في غابرِ التّاريخ، قُبيلَ الميلاد.

في منطقةِ بلاد ما بين النهرين، (دِجلة والفرات).

حيثُ منبع الحضارات، ومصبّ الحقائق، البساطةُ المعقّدة، الطبيعةُ السّمراء، والتّربةُ الحمراء.

الشّمسُ الصفراءُ بأشعتها الذهبيّة، ونَسمات هَوائها العليل.

تلك الأجواءُ الهادِئةُ، التي دائماً ما تُثيرُ الريّبة!!!

يَسيرُ ذلك المشتّتُ بِخطىً مُترنّحة، وملامح تُشبهُ الموتى! مُنهكاً، هزيلاً، بالكادِ يَجرُّ خَلفهُ ظِله.

ينظرُ بكلِ خلايا جَسده، وكأنَّها أعينٌ مُحدقةٌ كدواماتِ النّهر الذي يمشي على ضِفافه.

وكأنّهُ يَحملُ على مَتنهِ الحقيقةَ التي أَثقلتْ كاهلهُ.

وكاهلَ كلّ من سيأتي بعده.

تلكَ النائمةُ في زمن اليقظةِ

كجريمة!!

لتبقى ناعِسةَ الأهدَابِ، تخافُ مِنّ الصّحوة،

تتقولبُ في العباراتِ، والأنفسِ، بشكلٍ مُشاكسٍ للواقع.

تأبى التعرّي والتّرجلَ من بُرجِها العاجيِّ، تبقى متواريةً في الأفق.

لِيَصدَحَ الوهمُ بِصوتهِ!

وتبقى الحكمة صدى الحقيقة المُتعقّل.

_هكذا كان يُردد دانيال قبل أن يدفنها، لكي يعود ويُتلفها لاحقاً!

لكنْ!. لا طريق للعودة، فالأقدارُ لها أقدامٌ تُهرولُ صَوبهُ، تُحاصرهُ من كلّ حَدبٍ وصوب، لتُمزقهُ، فَيصبح رفاتاً.

وتغفو هي في سُباتٍ سرمديّ.

_ماتَ دانيال، ونامت معه قريرةَ العين.

الموتى فقط يَفنون، أمَّا الحقائق: تنعس، ترقد، تصدأ، ولكنها لا تموت لا تموت.

***

سَنةِ(2011/ م) في سورية، في ذات المكان، وذات المنطقة.

بلادُ ما بين النّهرين، تبدأ الحقيقةُ بالتقلُّبِ في فراشها بعدَ نومٍ دامَ آلاف السّنين، رويداً رويداً، على أصواتِ طبولِ الحربِ و القَصْف.

وكأنَّ جُثّةَ دانيال تَحومُ فوقَها لتوقظها بشتّى الطرق.

في هذه السّنةِ تنتفضُ الشّعوبُ، وتنتفضُ معها الحقائق التي عادةً تحتاج إلى من يُحركها لِتصْحو.

آرامُ. هو ابنُ الرّيفِ البعيد، المَجبولُ بالقمحِ والشّعير، ابن الفراتِ ودِجلة، كأي بدوي ولدته أمه واقفاً على قدميه، اقتبس لون بشرته من ترابِ الجزيرةِ، واكتست ملامحه بحنطتها السمراء، وسقى عروقه ماءَ خابورها.

طالبُ الاقتصاد الجارد للخيبات، والمَدينُ لِلحُزنِ بالتنهيدات، لا يملكُ من غلّةِ قلبه، سِوى حُلُمٍ شِبه عابر.

يَدْرسُ في كليّةِ الاقتصاد، في مدينة حلب، التي تَبعد عن قريته الريفيّة قُرابةَ(400 كم).

كان حُلمه أن يصبح مديراً لشركة، أو مصرفٍ، أو محاسباً في إِحدى الشّركاتِ الخاصّة، ليتزوج مديرة الشّركة ويُصبحَ غَنياً!!

ثمّ يُطلِّقَ مُديرته ليتزوج حبيبتهُ ميديا.

وهذا أضعفُ الإيمان!!

ولكنّ الأحلامَ لابُدّ أن تَصْطدِمَ بواقعٍ أعمى الخُطى.لينتفضَ هو الآخرُ أيضاً على صوتِ الحرب.

الحرب إذاً!!

عليَّ أن أعودَ إلى أمي، وأبي، و منزلي الريفيّ البسيط.

هكذا هي تلتهمُ البُسطاءَ، أعرفُ حظّي العاثر.

لا أريدُ أن أصبحَ وجبةً دَسِمةً لإحدى الميليشيات المُسلّحة. يُتمتم آرام وحقيبته في يده، تلك التي تحمل جُلَّ أحلامهِ
منْ كتبٍ، ومحاضراتٍ جامعية، وما تبقى من ذكريات.
فيهيم جسده بالرحيل.!!
هذه الحرب لا تترك مجالاً لوديعةٍ، أو وداع صديق، أو قُبلةٍ تذكاريّة ، تأتي فجأة كموتِ النّوبات!!
_ يُحدّثُ نفسه ،وهوَ في طريق العودة.
يعودُ إلى قريتهِ، جارّاً أذيالَ حُلمه، وعيناهُ حُبلى بالدّموع، يلتقي أهلهُ بِخُفّيّ حنين ووجعٍ دَفين.
تحتَضنه والدته وإخوته فرحين بعودته، ومباركينَ سَلامته، ففي الحرب:
النجاةُ انتصار! والهرب نجاح!!!
_يا بُنيّ لقد نَجوتَ ولُذْتَ بروحك.
هكذا تُردد أمُّ آرام ودموع الفرح تَهطل من عينيها.
يُذكر أنّ قريته نائية، في محافظة الحسكة، تلك المحافظة المَنسيَّةُ المعزولة عن المدن السّورية الأخرى، يَقطنُ آرام على مَقربةٍ من مدينةِ رأسِ العين.
وهي مدينةٌ سوريةٌ تقعُ شمال محافظة الحسكة، على الحدود التركية. أثريةٌ تاريخيةٌ قديمة، منذ(4000 سنة).

أهمها مدينة (تل حلف)، التي سُرِقتْ آثارها الآرامية والآشورية، ووُضعت في متاحف برلين وباريس.

كانت (رأسُ العينِ) تُعرف باسم كابارا في العهد الآرامي، وغوزانا في العهد الآشوري، ورازينا أو رسين وتيودسليوس في العهد الروماني، ثمّ سُمّيتْ (رش عيناو) وترجمتها الآشورية (رأسُ العين).

وبعد ذلكَ سُميّت قَطف الزّهور، وعين ورد، وأخيراً

تمّ اعتمادُ تسميتها (رأس العين).

المدينةُ الحالية. حيثُ تضمّ أصنافاً من العرَبِ والأكراد والأرمن،والسّريان، والشيشان.

كانت في العصر العباسي، مركزاً تجارياً هاماً.

ومحطةً هامةً للقوافل، ومصيفاً للخليفةِ المتوكل. وغيره من الخلفاء العباسيين.

كما اتّخذَ منها السّلطان (صلاح الدّين الأيوبي)

مركزاً للاستراحةِ مدةَ عامٍ كاملٍ، أثناء معاركه وفتوحاته

في منطقةِ الجزيرة العُليا وشَمال حلَبْ.

تَمرُّ السّاعاتُ والأيامُ والشّهور، والحَربُ تدورُ رحاها على مَقرُبةٍ من قريةِ آرام.

تلكَ القريةُ البسيطة، قد طحنها الفقرُ قبلَ أنْ تطحنها رحى الحرب الآن.
يجلسُ في حقله، تحتَ ظِلّ شجرةِ الزّيتون، فيَستفزه حنينٌ عابرٌ، ثمّ يعودُ بذاكرته إلى الوراء، حيثُ طموحهُ الجّامعيُّ وحبيبتهُ ميديا، وأصدقاؤه الذين لا يعرفُ من نجا منهم ومن قُتِلْ!!!
يَقِفُ مُتَرَجِّلاً!!
وبغضبٍ!!
يَقطفُ ثمرةَ زيتونٍ يَعصرها بيدهِ ،ثمّ يتمتمُ هامِساً في سِرِهِ:
ـ هي الحربُ تَعصِرُ أبناءَ الوطن، كما نَعصرُ نحنُ شجرةَ الزّيتون!!
يَسأل نفسهُ متعجباً:
ما الذي فَعَلتْهُ شَجرة الزّيتون، ليُعْصَرَ أبناؤها بهذه الطّريقة!!؟؟
يردّد مجيباً نفسهُ : ربما لأنها مِعطاءةٌ!!
أو طريةٌ هشةٌ، وهذا ذنبها وذنب الضّعفاء، لا ذنبنا!!!

تَمضي الشهورُ والسّنوات كَلمح البَصر، وكأنَّ للحياةِ أقداماً تركضُ تركضُ، وآرام كالعاجز على كرسيّ واقعهِ، يعملُ في الحقلِ منذ انبلاج الفجرِ، حتى تثاؤبِ الشمسِ.
في يومٍ كغيره من الأيام، شعر بأنهُ منهكٌ قد أضناه التّعب.

فذهبَ كعادته، ليستريحَ تحتَ ظلِ شجرة، مُستنداً إلى جِذعها، شجرةٌ اعتادتْ وجوده، كما اعتاد هو وجودها.

تحت الشجرة يُدنْدنُ بصوتهِ الحزين، لله درّ الشّجر رَغم ثِقلهِ، يسندنا دون أجر!!

حاملاً بيده ذلك الفأس، الذي سَيغيرُ يوماً ما حياتهُ.

يتكلمُ مخاطباً إيقاعَ ضَرباتهِ :

_لابدّ لنا منْ فأسٍ لِجزِّ عُنُقِ الحياة، والسّير بأحلامنا إلى الهدفِ المنشود ، وبَترِ عُنقِ الواقع، الذي أنجبنا دون أن يرتدي واقي الفقر!!

لقد كان آرام كاتباً، وربما شاعراً، دونَ أنْ يُخبرهُ أحدٌ بذلك.

أحياناً تحتاج لمن يخبرك بأنك جميلٌ، فأنتَ لا ترى نفسك إلاّ في عينِ مَن يَراك.

كالعادةِ، وبذاتِ الرّوتينِ المُطبق، بدايةُ النّهاية!!

ونهايةُ البداية!!

وكالسؤال الأزليّ، البيضةُ جاءتْ من الدّجاجةِ!! أم الدّجاجةُ جاءتْ من البيضة!!

حلقةٌ مُفرغةٌ، تلكَ التي يدور فيها تفكيرهُ.

(حراثة، استراحة، فلاحة).!!!!

إنّما لابدّ للحلقةِ أنْ تُفتحَ، وأنْ يخرج من عُنقِ اليأسِ، ويتحرّر منْ قضبان الواقع.

في أحد الأيام، بينما كانَ جالساً كالمعتادِ تحتَ الشجرةِ

بدأتِ الأحلامُ تُروِاده، وتَقضُّ مضجعَ واقعه.

يُحَدِّثُ خيالهُ متسائلاً :

_ماذا لو كانت الشّجرة التي تَسْنُدني سريرَ نَومٍ لي ولفتاةِ أحلامي ميديا!!

ماذا لو كانتْ خِزانةً، تضع فيها حَبيبتي ثوبَ زفافها الأبيض؟

ثمّ يَتساءلُ بحزنٍ : ماذا لو كانتِ الشّجرةُ تابوتاً!!؟؟

وفي لَحظةِ يأْسٍ وغَضبٍ عَارمٍ، تماماً كمشهدٍ يَحدثُ في الرّواياتِ والأفلام، ضربَ بفأسهِ الأَرضَ، فكانت طريةً!!!!

وشعرَ بشيءٍ ما قدْ اصطدمَ بالفأس!!

صرخَ غاضباً : ما بها الأرضُ ما بها !!

أم هي أيضاً كالسّماء ضدي لا تدعني أنفثُ وجعي!!

يَسحبُ الشيءَ العالقَ بقوة!

رباه!!!

ما هذا الشيء !

ينظرُ مذهولاً ويَهمسُ، يبدو أنه مثبتٌ من الأسفل، سأحفر حوله بهدوء يجبُ عليَّ ألّا أتلفه.

أخيراً ظهرَ صندوقٌ صغيرٌ مُغبّرٌ، يَمسحهُ آرامٌ بعُصْبَتِهِ، التي كانت تَقيهِ وَهجِ القيظِ، وهوَ يَحرثُ الأرضَ.

راح يتفحصهُ من شتّى الجوانب قبلَ أنْ يفتحهُ.

يتحدثُ مندهشاً مع نفسهِ :

_ما هذا ؟

يا إلهي.

من وضعه هنا!!

ولماذا! وكيفَ! ولِمَ!!؟؟

يبدو أنه شيءٌ ثمين، فالأشياء الثمينةُ تُدفن، نعم بالتأكيد، لو أنني كنتُ ثميناً ما بقيتُ لهذه اللحظة أتنفس الحياة !!

صديقي كانَ ثميناً، فدفنتهُ الحربُ وماتَ شهيداً.

لنْ أخبرَ أهلي شيئاً عن هذا الصندوق.

هم بُسطاءُ جداً سيجعلونَ منه منفضةً لسَجائر والدي، ثمّ يتلفونَ ما بداخله.

ولكن كيفَ سأجدُ تصريفاً له ؟؟!

يُفكرُ قليلاً بصمتٍ ثم يصرخ:ـ نعم. سومر. ابن قريتنا،
لقد درسَ في كليةِ الآثار، ولديه خبرةٌ في هذا المجال.
نعم نعم. الآن سأحتاجه، رغم أنه لا ينفع لشيء!!
يبدو هذا الصندوق "أنتيكا"، وشكله أثريّ، كمذياعِ جدتي.
يضحك ويضحك، حتى تتعانقُ تجاعيدهُ، بعد حزنٍ دفين.

يُذكر أنّ سومر في العقد الثّالثِ من عمرهِ، كان يدرسُ في جامعةِ دمشق،
قسم الآثار والمتاحف،
لم يكملْ دراسَته بسببِ الحرب.
قصيرُ القامةِ حنطيُّ البشرةِ ذو شعرٍ مُجعّدْ.
يَذهبُ آرام إلى بيتِ سومر، يَطرقُ البابَ، بيدٍ شِبه مرتعشة.
سومر :
ـ من الطّارق؟
آرام :
ـ طارق بن زياد.. ويضحك ساخراً بصوتٍ عالٍ.
سومر :
ـ فتحتَ الأندلس، ولا تستطيع فتح الباب أو خلعه!!

يردف قائلاً :

_ يا غلام. تفضّلْ ولا تُثرثِر كثيراً، فأنتَ تعرفني جيداً.

هادئ كالتماثيل.

آرام :

_يا إلهي لقد فتحَ البابَ، وفتحَ معهُ الموضوع.

يهمس لنفسه، ثُمّ يدخل وراءهُ إلى غُرفةِ الضيوف.

سومر:

_ماذا تشرب ؟؟

الشاي بالطبع.

سأنهض لأُحضر الشّاي.

يتمتم آرام بصوتٍ هادئ :

_ هذا الرجل يَسأل، ويجيب، ويُنفّذ!!!

كم هو رائعٌ، أنْ تَجدَ من يسألك، ثم يعتقك من قيد الإجابة ليصبح سؤاله عدماً.!!!

يَدخلُ سومر ومعهُ الشاي، ليرى آرام وقد هَمّ بإسدالِ ستائر النّافذة.

يرتابُ قليلاً سومر!!

لكنّه ظنّ أنه أراد بعملهِ هذا، أنْ يَحجبَ وجهَ الشّمس، لأنّ أشعتها كانتْ قويةً كالحقيقة التي تُعمي الأبصار!!

يُخرج آرام الصُندوقَ من زُوادتهِ الّتي كانتْ معهُ في الحقل، ويضعهُ على الطّاولة.

يَسود الوجومُ أرجاءَ الغرفة، فلا يُسمعُ إلا صوت عقاربِ الساعةِ المعلقةِ على الجدار، وصوتُ ارتشاف الشاي من فمه.

سومر يكسرُ جدارَ الصمتِ ويسأل :

_ما هذا الصندوق الصدئ يا فتى!!؟؟

وكأنه خرج للتّو من مقبرةٍ فرعونية!!؟؟

يجيبه آرام :

_تفحصه دون ثرثرة ، وقلْ لي هل هو أثريٌ!!؟؟

وما الذي بداخله؟

يفتحُه سومر، فيجد كتاباً، يتصفّح أوراقه.

ويجيب :

_إنّه مخطوطٌ أثريٌ، وعليه نقوشٌ ورسومات، تعودُ لعصورِ ما قبل التّاريخ!!

ردّ آرام متلهفاً:

_إذا بِعناهُ أنا وأنت، فكم سعرهُ (مئة ألف ليرة أم مئتان)!!؟؟

يجيبه بضحكةٍ مرتبكة:

_بلْ قُلْ الملايين يا فتى!!

هذا مخطوط أثريٌّ، وليسَ دفتر ديون دكان"أبو عزرا".

آرام:

_نعم وجدتها عزرا!!

سيفيدنا كثيراً، إنه بمثابةِ الشّريان الاقتصاديّ في القريَة.

فهو الغني الوحيد، ونحن بحاجةٍ لجَني المال، ضع التسعة وخذ العشرة.

يقاطعه سومر مبتسماً:

_لقد نَسيتَ بأنكَ درستَ الاقتصاد في الجامعة، وكنتَ متفوقاً جداً،

ولكنّ الحربَ جردتكَ أنتَ وأحلامكَ من يقين الواقع، فأصبحتَ بلا أيّةِ قيمة!!!

آرام :

_صِه يا رجل.

وأنتَ ماذا فعلتَ بشهادتك؟

لا شيء!!

أنتم طلاب الآثار، يجبُ أنْ تُدفنوا في هذه الحياةِ، ليصبح لكم ثمن!!

لا تُكرر شريطَ الماضي، وأمامنا المستقبل!

دَعنا نذهبُ إلى عزرا، قبلَ أن يجنّ الليل.

في الطّريق إلى مَنزلِ عزرا، يتساءَل سوْمر :

_هل سنجدهُ في منزلهِ، أَمْ في المَحل، أم خارجَ القرية!!

يجيبه آرام:

_إنه كثيرُ التّجوال، يتحركُ كثيراً، ولا يطيلُ البقاءَ في مكانٍ واحدٍ.

كطائرِ القطا!!

(هو طائرٌ يعيشُ في منطقةِ ما بينَ النّهرين، يتّصفُ بأنّهُ سريعُ الانتباه والحذر)، لذا. لا أعتقدُ أنّه يتَواجدُ في منزله.

لكن لابأس. لنذهب إلى هناك أولاً، ومن ثم إلى الدكان.

لا نريد أن يرانا أبو عزرا، فهو رجلٌ كثيرُ الأسئلة.

عادةً الذين يتساءلون كثيراً، هم أكثرُ الناسِ بحثاً عن الحقيقة وإنْ سألتهم عن أنفسهم، تَراهم لا يَجدونَ أدنى إجابة.

آرام:

_كلّنا مع الحقيقةِ التي ليستْ ضدنا، لأنها موجعةٌ جداً، حتى أوديبْ فقأ عينيهِ عِندما أدركَها.

الآن. وقد وصلا إلى عزرا، وجدا أخاه الصّغير يقفُ عندَ البابْ.

يسأله آرام :

_أين هو عزرا ؟

يجيبه الطّفل : لا أعلم.خرجَ منذ الصّباح الباكر، ولم يعد بعد، ولكني أعتقد أنّه على ضفافِ النّهر يصطادُ السّمك، رأيتهُ. كانَ يَحملُ زوادتهُ وعدّةَ الصّيد.

يتمتم سومر هامساً:

_طبعاً فهو كما عَهدناهُ لا يتركُ عادته السّيئة، لابدّ أنه ارتكبَ مجازر شنيعةً بحقِّ الأسماكِ البريئة،

وللأسف.لا يوجد قانونٌ دوليّ يحاكمه كطغاتنا!!

يُردف :

_ربما نحن من سنجعله يترك هذا القمع غير المنهج الذي يمارسه ضد الأسماك، فعندنا صيدٌ أثمن من هذا، ولا يَحتاج إلى سّنارةٍ أو شِباك!!

آرام :

_ما أجملَ الأهدافَ المتحرّكة، تلكَ التي تَسعى هي إليكَ دون عناء، كالقدر المُستعجَل!!

ثمّ يغادرانِ باتّجاهِ النهر.

عزرا هو أيضاً ابن نهر الخابور، درسَ الإرشادَ النّفسيّ، في جامعةِ حمص، كصديقيه أيضاً كانت الحربُ حجرَ عثرة في طريق إكمالِ تعليمهم، يتمتّع ببشرةٍ سمراء، طويل القامة،

تعرفهُ من قبعتهِ الّتي تُرافقه دائماً، يضعها على رأّسهِ، عندما يذهبُ للصّيد، والتأمّل والاسترخاء على نهرِ الفرات.

على ضِفافهِ يَجلسُ عزرا، وعلى رأسه قبعة ثابتة أشبه بفزاعات الحقول، وكأنّه ذَهبَ ليُمارسَ (اليوجا). لا ليصطاد!!

وبجانبه سلّة، داخلها مجزرةٌ مروّعةٌ من الأسماك.

بينما كان جالساً، يتأمّل تلك الطبيعة الخلاّبة بألوانها الزّاهية، يسمعُ وقعَ أقدامٍ قادمةٍ من الخَلف، وبنصف التفاتةٍ يرى سومر وآرام على مَقربةٍ منه.

يلقي سومر التّحية قبلَ أنْ يصلَ إليه.

_كيف حالكَ عزرا ؟

يردُّ بهدوء:

_على أفضلِ ما يُرام، ثمّ يُشيرُ لهُما بيدهِ أن اجلسا.

يهمسُ سومر قائلاً

(وهو ينظر إلى الأسماك بجانبه، وكأنّها خارجةٌ للتّو من مجزرة كيماوي):

_هذا المعتوه لنْ يتركَ ساديّتهُ في قمعِ الطّبيعة.

أردف آرام مخاطباً عزرا:

_يا رجل عندما لا نريد رؤيتك، نجدك أمامنا كالقدر المُستعجل،

وعندما نحتاجك لا نجدك إلاّ بِشقّ الأنفس!!!

عزرا :

_الأشياء التي نحتاجها تختفي من أمامنا، وكأنها تنتقلُ عبرَ الزّمن.

ويَستطرِد مُتسائلاً :

_ما الذي يفسّر اختفاءَ ولاّعةِ السّجائر قليلاً قبل أن تعود ؟

هل لمثلِ هذا الأمرِ ، علاقةٌ بالمؤامرة الكونيّة حسْبَ نظريات طغاتنا وحكّامنا!!؟؟

أمْ بالا ختفاء الذّريّ المحيّر، الذي يدلُّ على الحركة البُعديّة والتّزامنية في المجالات، والاحتمالات، اللّامحدودة للنشاط الذريّ المعقد؟

أم له علاقة بمفهوم الاختفاء الآنيّ في العدم حسْب أنصارِ النّظريّة العَدميّة.!!؟؟

أم لهُ علاقة بانحناء الزّمن (حسْبَ نظريّة الزّمكان، و النّسبيّة)؟؟

أَم له علاقةٌ بالماورائيات، وكَهنوتِ العَالمِ السّفليّ حَسبَ أنصار النّظريّة

الدّينيّة.؟

يقاطعهُ سومر:

_أم له علاقةٌ باختفاء هَيكل سُليمان!!؟؟

يسود الصّمتُ لبضع ثوانٍ.!!

يُضيفُ آرام:

_أنا شَخصُ حساباتٍ وأرقام، ولا أؤمِنُ بكلِ هذه النّظريات الوهميّة.. لذا. دعكما من ذلك، ولنتحدّث بما بَينَ أيدينا الآن.

يقول عزرا (بسخرّية):

_ وما الذي بين يَديكَ يا صديقي، غير الحصى التي ترميها في النّهر مذ أتيت.!!؟؟

آرام:

_أترى تلكَ الدّوائر في النّهر كيفَ تتشكّل من الحصى التي أرميها ؟ إنها عيونه المحدّقةِ إلى السّماء، لنْ تَلبثَ طويلاً، سيُعميها تيارُ نهرٍ مارق.

عزرا:

_ماذا تقصد؟

يَهمُّ آرام لإجابته،. فيقاطعه سومر:

_يجبُ أن تكونَ أعيُننا مفتوحةً كالأسماك!!

آرام:

_أحياناً نضّطر إلى التحدث كثيراً، حتى نُمهّد لكلمةٍ واحدة، كما يفعل الشّعراءُ بكتاباتهم، ذاتَ يوم كتبتُ هذه العبارةَ وأنا على وشك أن أصارحَ حبيبتي.

لماذا اللّف والدوران في الكتابة؟

قلْ لها أحبكِ ثمّ اغرز القلمَ في قلبك.

سأغرز الحُلَم في دماغكَ يا عزرا.

وأردف:

_أعلم أن محاولة حشو فكرة في رأس شخص ما سيتلفها.

والآن لنتحدث عن الكنز الذي بين أيدينا.

يَختم آرام كلامه، ويُلقي آخرَ حَصوةٍ في النّهر.

_عن أيِّ كنزٍ تتحدث يا فتى!!؟؟

أأُصدقكما القولَ! شعرت بشيءٍ غامضٍ يَجوبُ في خلدكُما منذ رأيتُكما تتّجهانِ نَحوي.

يقول عزرا متسائلاً!!!

سومر :

_لقد وجد آرام كنزاً ثميناً، و جئنا إليكَ لِنجدَ مَنفذاً.ستكون شريكاً معنا، فأنتَ الشّخص الوحيد الذي نثقُ به، وستكون عوناً لنا.

عزرا:

_وما هذا الكنز ؟ أهوَ تمثالٌ أم قطعٌ ذهبيّة!!!

سومر:

_لا هذا ولا تلك، بل مَخطوطة أثريّة، تعود لِعصرِ ما قبل الميلاد.ربما ألف سنة، ربما ألفان، ربما ربما..

لا أعلم.

عزرا:

_وما الّذي كُتِبَ عليها ؟

آرام:

_لا يَهمّنا ما الذي كُتبَ عليها، بِقدرِ ما يهمّنا ثمنُها، فنحنُ في عَصرِ المظهر لا الجَوهر!!

أردفَ قائلاً:

_لقدْ خيّم المساء، وبدأتِ الشّمس تَنعس، ولم نَصل إلى حلٍ!! لنتعجل في الأمر، فالحربُ على أشدّها، و الناس مشغولونَ بالموت!!

ونحنُ على مَقربَة مِنَ الحياة، من الحُلم، من ميديا.

يقهقه بعدها.

عزرا:

_وجدتُ الحَل .....

سنناقش الموضوع، وليَكنْ اجتماعنا غداً في حقلِك يا آرام،

احتفظ بأحلامنا لكي لا تضيع، وضع الصندوقَ في مكانٍ آمن.

يعود آرام إلى منزلهِ، وهو مُثقلٌ بالأحلام.

_أهلا آرام.

أين كنتَ يا وَلدي منذُ الصّباح الباكر ؟

تسأله أمّه.

يجيب بهدوء :

_لقد أنهيتُ عملي في الحقل، وخرجتُ لأرى صديقي عزرا، فمنذ زمنٍ لم ألتقِ به.

يدخل غرفتهِ الطينيّة، يبدأ بالحفر تحتَ سريره لكي يَدفنَ الصّندوق.

البيوتُ الطينيّةُ سقفها من طين، وأرضيتها أيضاً، ومنازل القريةِ أغلبها كذلك، حيثُ البساطةُ المعقدة، فهي مجبولةٌ بالتّرابِ والخزف، ممزوجةٌ بالفَقرِ والحُزن، فمُها المِزرابُ وعيونها المغارات، ورموشها القش.

تُعدُّ ملاذاً آمناً للعصافير، و أسقُفها حدائق الأزهار.

لا تتثبّت على جُدرانها صورةٌ لحاكم، فهي هشّةٌ أمام الطّغاة.

تلك المنازل الطينية دافئةٌ كحنانِ الأم شتاءً، تتسلّل منْ مساماتِها نَسماتٌ عليلة صيفاً.

أبناؤها يعيشونَ على خُبزِ التّنور الممزوجِ بترابِ الوطنْ

وأيادي الأمهات، فلا تُرعبهم فكرةُ البرزخ، هم يعتقدون أن القبرَ هو الطّابقُ السّفليّ للحياة!!

تلكَ البيوت، عندما تمرض تَسعلُ غُباراً، وعندما تَحزن تبكي وحلاً!!

يُنهي آرام دفنَ الصّندوق، ثمّ ينفضُ الغُبار عن يديه، وإذ بطيفِ شخصٍ يتلصّص من وراءِ النافذة!!

آرام:

_هييي. من أنت؟ ولِمَاذا تَقفُ هنا!!!

يقتربُ بخفةٍ من النّافذة، ليراهُ يهرولُ بعيداً.

_يا إلهي. إنّه يَعقوب الأخرس جارنا، وأعتقد أنّه رآني.

غداً سأمسكهُ، وألقّنه درساً، كي لا يَتجرّأ على فِعلِ ذلكَ مرةً أخرى.

يذهبُ إلى غرفةِ الجلوس، والداه يتابعان الأخبار.

آرام:

_ماهي أخبارُ الحَربِ يا أبي!!

منذ مدةٍ لم أتابعها.

الأب (بنبرةِ حزنٍ):

_لا جديد ولكنْ.

كلّما تَسلّقوا شَجرةَ الوطن؛ تَساقطَتْ جُثثُ الشّهداء الطّازجة.

آرام:

_الموتُ لا يُوجعُ الأمواتَ تَحتَ التّراب يا أبتِ، أولئكَ الذين يَموتونَ دفعةً واحدة على هيئةِ باقة، إنّما يُوجع الأحياءَ، هم يموتونَ بالتّقسيطِ المّمل، ليسَ بالضرورة أن يأكلَ الدود جَسدكَ لتكونَ مَيتاً، من المُمكن أنْ يَنهشَ الدُّود قلبكَ وأنتَ حيٌّ تُرزقْ.

الأب :

_صدقتَ يا بُنيّ، ولكنْ هناكَ مَنْ تَطْعنهُ الحَرب، وتُجْهز عليه الحَياة!أوَتعلمْ ما الذي حَلّ بابن جارنا!!

عادَ من الجيشِ، وقدْ فَقأتْ الحربُ عينيه.

آرام :

_وهل أهداهُ القائدُ تلفازاً، ليُشاهدَ الحربَ باللونِ الأَسود؟

والذي بُتِرتْ سَاقاه، هل سيُهديهِ دراجةً ليسابِق عَجْزَه ؟

الأب:

_يا ولدي ... هذه الحرب التهمتْ البشرَ، والحَجر، ودمّرتْ حضارةَ البلدِ، ونَهبتْ آثارها.

آرام (متمتماً):

_وكأنهّ اشتمّ رائحةَ الآثار في غرفتي، نعم فالمال لهُ رائحةٌ يَشتمّها الفقراءُ عن بعد.

يسيرُ آرام مُتجهاً إلى غرفته، فتناديهِ والدته.

_يا بنيّ. هل أحضر لكَ العشاء، ألستَ جائعاً!!

آرام :

_لستُ جائعاً يا أمي.

تصبحونَ على وطنْ!!

يتمدد على فِراشه، فتَجوع ذاكرتهُ إلى الماضي ،

إلى جامعته، وحبيبته ميديا.هوَ اللّيل يستفزُّ نُحومَ الذّاكرة،

لنصبحَ وجبةً دسمةً لأطيافِ الحنين.

يُحدِّثُ نفسه هامساً :

_ليس الجوع فقط للطعام

هناكَ جوعٌ لشخصٍ

للمسٍ

لهمسٍ

هناك جوع لمكان، لحنان، لزمانٍ

لِبلدان.

هناكَ جوعٌ من حنينْ للرّاحلين.

لذكرى المحبين.

من الممكن أنْ تموتَ جوعاً، وأنتَ مِنَ المتخَمينْ.

***

في صباحِ اليوم التّالي (1/ أيلول سنة2013م).

يجتمعُ الثّلاثةُ تحتَ شَجرةِ الزّيتون.

آرام:

_حلّتْ بنا مُصيبةٌ يا رفاق، فقدْ رآني يعقوبُ الأخرس وأنا أدفنُ الصّندوقَ في غرفتي.

سومر (ضاحكاً):

_أَجُننتَ يا رجل!!

إنّهُ أخرس، ولكنّي سَأبترُ لِسانهُ إنْ تفوّه بصمت!!

عزرا:

_الصَّمتُ صوتُ الذين لا صوتَ لهم، إنّهُ لُغة الموتى الرّسمية.

يُضيفُ آرام:

_الحقيقةُ ابتلعَها رجلٌ أخرس، لذلكَ هي صامتة.

_دعونا من يعقوبٍ وسيرته، ولنتناقشْ بالحل الآنْ..

يردفُ عزرا (متأففاً)!!

آرام:

_وما الحلُّ الذيْ لَمَّحْتَ إليهُ ذلكَ اليوم ؟

سومر:

_أعْطِنا إيّاهُ منَ الآخر، فأنا لا أحبُّ البدايات، فهي هامش!!

وكذلكَ الذينَ يُسمّونَ الأشياءَ بُمسمياتها.

آرام :

_نعم، وأنا أيضاً لا أحب تسمية الأشياء بمسمياتها، حتى ميديا لم أنادِها يوماً باسمها، كنتُ أطلق عليها لقبَ حبيبتي.

عزرا :

_سنُخرجُ المخطوطةَ إلى تُركيّا، لي صديقٌ هناك يعملُ في منطقةٍ اسمها (كولسيو Gülsuy).

يقولُ صديقي واصفاً إياها:

_مدينةٌ جميلة في النّهار، ومرعبةٌ موحشة ليلاً، تَنشطُ فيها المافيات، ولا يدخلها الأمن التركيُّ بتاتاً، مهملةٌ منسيّةٌ،

كمدينة الحسكة!!

مركونةٌ على سَفحِ جبلٍ، تطلُّ على(اسطنبول)، هذه المدينة التركيّةُ الجميلة مطلّة على البحر.

لذلك سنلوذُ بحلمنا إلى الجَبل، لعلّهُ يعصِمنا من ويلاتِ الحرب التي تلتهمُ الأحلام.آرام:

_نعم يا رفيق صدقت،

فالهروبُ مواجهةٌ عكسّية، أن تهربَ يعني أن هناك شيئاً لا تريد خسارته، أو تريد الحفاظ عليه كما هو!

سومر:

_لا أطيقُ مغادرةَ الوطن، ولكن!!

كم كبسولة مقوية يحتاج هذا الوطن، لينتصبَ من جديد!!

هذا الوطنُ أصبحَ عقيماً.

عزرا :

_عندما يكونُ الوطنُ حَقلَ ألغام، والحاكم فزّاعة، فمنَ الطّبيعي أنْ تهاجرَ الطّيور.

آرام:

_بعد أن أخذوا من الشّجرةِ ثِمارها، وكلَّ خيراتها، جعلوا من أغصانها حَطباً، ثمّ جَلسوا يستدفئون ويتسامرونَ على رَمادها.

عزرا:

_البلادُ الّتي لا تَنبح كِلابها على الغرباء، بلادٌ خاليةٌ مِنَ الشّرف.

يَسودُ الحزن والصّمت.

عزرا:

_تكلّمنا حزناً بما فيهِ الكفاية، حانَ وقتُ الحُلم، سنرى إلياس الأعرج اليوم، فهوَ يَعملُ في مَجالِ تهريبِ البِشرِ إلى تركيا،

وبالتّأكيد سيُراعينا بالسّعر، فهوَ ابنُ قريتنا.

آرام :

_إلياس ما غيره؟

ذلكَ الأُميّ الذي لا يكتب ولا يَفقهُ شيئاً، أصبحَ مسؤولاً في وِزارةِ التّهريب.؟!

هذا وهو أعرج، كيفَ لو كانَ بسَاقيْن؟

سومر:

_هي الحربُ.ترفعُ الجاهلَ، وتُسقطُ العالِمِ.في الحربِ، يجبُ أن تَكونَ جاهلاً، لِتفهمَ لغةَ الموتِ وتُسايره.

عزرا (مقاطعاً) :

_هَيّا بنا لنرى إلياس الأعرج، يَجبُ علينا أنْ نسابِقَ الزّمن، للحلُمِ أرجلٌ، وهوَ عداءٌ ماهر!

***

(2 أيلول/ سنة/ 2013).

حيثُ الخريف فَصلُ الهجرةِ، هِجرةُ الأوراقِ على مَتنِ الرياح، هجرةُ الأحلامِ على متنِ الخَيال.

في الخريف. تتعرى الأشجار وتبدأ الظّلالُ بالاختِفاء، إنّهُ موسمُ التّعري، وفصلُ الحقيقة.

هو خدعة ابتكرتها الطبيعة لكشف حقيقة الساقطين من شجرة الحياة.

يَقعُ منزلُ إلياسَ الطّينيّ، على أطرافِ القَرية النائية.

يجتمعُ الثّلاثة معهُ، في فناءِ البيتِ تحتَ شجرةِ السّرو،

حيث تَقيهم زخّات المَطرِ المتساقطة، ففي الخريف تتعرى أغلبُ الأشجار، والشّجرةُ العارية تُثيرُ لُعابَ الحطّاب.

فقط. شجرةُ السّرو، تحافظُ على حِشمتها.

عزرا (مخاطباً إلياس بِسُخريّة):

_عَلِمنا أنكَ قد أصبحتَ المَسؤول الرسميّ عن تَهريبِ الأرواح. فكيفَ نستطيع عبورَ الحدودِ إلى تركيا!!؟؟

وكم ستأخذ على تهريبِ الشّخص الواحد؟

إلياس :

_في هذه الأيام، الحدود مراقبة، وأنتم على دِرايةٍ بالذي يحدثُ في منطقتنا، بعد دخولِ داعش، وحزب العمّال الكردستاني(Pkk)، والنظام، حيثُ المعارك على أشدّها، لكنّ هناكَ معبراً وحيداً من مدينة رأس العين، من جهة بلدةِ تل حلِف الأثرية.

سومر:

_هذه البلاد مليئةٌ بالآثار، وآثارُ الفَقرِ على وجوهِ سُكّانها!!

لقد قرأتُ عن مدينتنا، وعن بَلدة (تلّ حلف)

و آثارها، الّتي نَقلها المُستشرِق الألمانيّ(أوبنهايم)

إلى مِتحفِ برلين.

عزرا:

_نعم وأنا أيضاً علمتُ ذلك، وعلمت أنّ أجدادنا عندما اكتشفوا التّماثيل الآرامية العِملاقة خافوا منها، واعتقدوا بأنها"السّعلوة" (السّعلوة كائنٌ ماورائيٌ لاوجودَ له) وأخبروا (أوبنهايم) بذلكَ، فقامَ بنقل خرافتهم إلى برلين.

أقصدُ حضارَتهم (يتأوّه بحزنٍ. عزرا)!!

(تلّ حلف) :. بلدةٌ في منطقةِ شرق شمال سوريا،

غربيّ مدينةِ(رأس العين)، في منطقة يَنابيع (نهرِ الخابور) أكبر روافد نَهر الفُرات.

وتلّ حِلف: هو الاسمُ المعاصِرُ للموقعِ الذي كان يُدعى باسم (غوزانا). في الألف الأول (ق. م).

وهو موقعُ مدينةٍ أثريّةٍ في سوريا، تُمثِّل فترةً زمنيةً في تاريخِ بلادِ الرافدين.

في عام(1911).ذهبَ (أوبنهايم). إلى تلّ حلف، و بدأت عملية التّنقيب، أثناء ذلك عثروا على القَصر الغربيّ، و على معالمَ أثريّةٍ، عليها رسوماتٌ واضحة لحيواناتٍ، وبشرٍ وتماثيل حَجريّة ساحرة.

ثمّ عثروا على القصر الشّماليّ الشّرقي، وعلى سور المدينة، وبوابات، ومدافن، وحجرة سُمّيتْ بالقاعةِ الثّقافية.

آرام:

_لو كان أوبنهايم موجوداً في مدينتنا. لأخذَ معهُ هذا الشّعب الفقير، فآثارُ الجوع والجَهلِ تخطُّ وجعها على وجوههم!!!

ولأخذ إلياس الأعرج، فهو يُشبهِ بَعلَ آلهةِ الآراميين.(يضحك الجميع).

يتكلمُ إلياس (بسخرية):

_ولماذا قررّتم تركَ البلاد؟

بالطبع.عندما يحتاجكم الوطن؛ تَفرّونَ منهُ كالثّعالب.

عزرا:

_أنتَ تقوم بالعمل، ولا تعمل به، تؤمّن تهريبَ البشَر ولا تهرب!!!

كتاجرِ المخدّرات، الذي يبيعها، ولا يتعاطاها.!!

((ضجيجٌ يملأ المكان قادماً من السّماء.))

آرام :

_إنّه صوتُ طائرة!!

عزرا:

_نعم هوَ صَوتُ الموتِ، يريدُ أن يقول لنا شيئاً.

إلياس:

_لقد قَصفتْ على مقربةٍ من المدينة.

سومر:

_أتسمع يا إلياس صَوتَ الموت ؟

هو الذي أجاب على سؤالك.

إلياس (بعدَ صمت):

_كنتُ أمازحكم فقط..

دعكم من الوطن، فقِصَصُهُ غصاتٌ لا تنتهي.

اذهبوا إلى أعمالكم، عندما يَحينُ وقتُ العبور

سأرمي لكمْ خبراً.

آرام :

_إلى أينَ سنذهبُ الآن ؟

عزرا :

_ سأذهبُ إلى المنْزل لأخْبر عائلتي بمَشروع الهجرة.

سومر :

_وماذا سَتقولُ لهم؟ ما الحُجّة الّتي سَوفَ نَختَلقُها!

عزرا :

_حجّة الحَرب طبعاً، وهل يُوجدُ سببٌ واحدٌ لبقائنا هنا ؟ الموتُ يَبعدُ قُرابة (30كم). وإنْ لمْ نره سنسمعهُ حتماً.

هوَ قريبٌ جداً، لو أنّ لهُ أرجلاً، لرأيتهُ بيننا الآن!

يضيفُ آرام مقاطعاً :

_عندما يُقرّرُ أحدهم الرّحيل، يَختَلقُ ألفَ حُجّة، ولكنْ في النّهاية، يبقى الرّحيلُ رأياً، ويجب احْترام آراءِ الراحلين.

يردفُ سومر (ضاحكاً):

_الحربُ هديّةٌ سماويّة، أما أنا فلا أحتاج حجّة لإقناع أحد ،

أمي كلّ يومٍ تُطالبُني بالرّحيل.

تخافُ أن تَلتهمُني الحربُ، كما التهمتْ ابنَ جارتنا الأرملة.

عزرا (ساخراً):

_كيفَ لها أنْ تَلتهِمكَ، وأنتَ بهذا البرود ؟

تحتاج لحربٍ عالميّةٍ ثالثة، لكي تستطيعَ هضمكَ يا فتى.

بلْ حرب المئةِ عام بينَ فرنسا وإنجلترا.

يقول آرامُ ضاحكاً.

سومر :

_كُفوا عن سخريتكم الآن، وليذهبَ كلّ منّا في جهة، كي لا يشعرَ بنا أحد.

فخروجنا معاً. من جهةِ منزلِ إلياس، مثيرٌ للشك!!

تمرُّ السّاعات، ومعها الأيّام، كلمحِ البَصر، وجميعُ آمالنا مُعلقةٌ على إلياسَ الأعرج.

(1/ تشرين الأول/ عام2013).

بينما كانَ آرامُ جالساً في حقله، رأى إلياس قادماً نحوه

إلياس :

_كيفَ حالكَ يا آرام؟

لم يمهلهُ ليجيب

أردفَ.

_اليوم ليلاً أستطيع تهريبكم إلى تركيا، لذا أخبر عزرا، وسومر بذلك.

آرام (مرتبكاً):

_نعم سأفعل.

غادرَ إلياس، تبعهُ آرامُ مغادراً حقلهُ متجهاً

لإخبارِ سومَر وعزرا بذلك،

ثمّ اتّجهَ إلى منزلهِ، ليُخرجَ الصّندوق ويودع أهله.

والارتباكُ سيدُ الموقف.

هكذا يكونُ الرحيل؛ مباغتاً كموت الفجأة!

في مَساءِ ذلكَ اليوم، يجتمعُ الأصدقاء بإلياس، ومعهم الصندوق.

بكى آرامُ تلك اللّحظاتِ مودعاً :

_وداعاً وطني. وداعاً أهلي.وداعاً ميديا

إلى لقاء أجمل .

عزرا أيضاً آلمهُ الرّحيلُ مُتمتماً:

ـ وداعاً أيّها الخابور،.

فلتسامحني تلكَ الأسماكُ التي أفنيتها.

أمّا سومر.

فقد كانَ بلا ملامح بلا تفاصيل، ليس حزيناً ولا سعيداً.

وإلياس كذلك، فقد اعْتادَ على تهريبِ البشر، هذه المهنة أَخرستْ عندهُ صوتَ الإحساس، فمشاهدُ الدموع، والأيادي المُلوّحة أصبحتْ اعتيادية جداً.

يُذْكر أنّ. (نهر الخابور)

هو نهرٌ طوله(320 كم)ينبعُ من جنوبِ تركيّا، بالقرب من الحدود السّورية، ثمّ يَعبرُ الحدودَ جنوباً إلى سوريا، باتجاهِ رأسِ العين، شمال محافظة الحسكة، تصطفُّ على ضفافهِ القرى الآشوريّة، والكرديّة، والعربيّة، والسريانية، ويندمج بنهر (جقجق).في الجزيرة السّورية، ثمّ يصبّان في(نهر الفرات).

بعد أنْ حزمَ الأصدقاء مَتاعهم، وذكرياتهم، وحفنة ترابٍ وعطر فجرٍ من وطنهم، ومظلّةَ طموحٍ قد تَقيهم قسوةِ ما ينتظرهم في غربتهم.

عزموا على المُضيّ بابتساماتٍ مُرهَقة.

على خُطى الحُلم
(اسطنبول كولسيو)

عبرَوا الحدودَ ودخلوا مدينةَ (جيلان بينار)

التّركية، المتاخمة للحدودِ السّورية، تاركينَ خلفهم

إلياس الأعرج ؛ ووطناً شبه مشلول.

سومر:

_أوه أشعرُ بالجوع.

آرام :

_جيد، هذا يعني أنّه لايزال لديكَ شيء تَشعرُ به.

ضحكَ عزرا مؤكداً ما ذكره آرام.

_نعم حقاً...

فعندما عَبرنا الحدود، لم أرَ نصفَ دمعةٍ تَخرجُ من مقلتيك! اعتقدتُ حينها

أنكَ فاقدٌ للشعور، أصابتني الغِبطة من ذلك ففقدان الشّعور شيءٌ رائع.

آرام (متهكماً):

_هم طلاّب الآثار هكذا، كالتماثيل.

سومر:

_لماذا كلّ هذهِ النستولوجيا التافهة؟

وأنتَ تُغادِر بابَ وطنك؛ إبترْ أصابعَ الحَنين.

يضيفُ آرام حالماً وسُحب الخيال تَحوم فوقَ سمائه:

_ما اختليت بالغيابِ! إلاّ وكانَ الحَنينُ ثالثنا، النّفسُ أمّارةٌ بالشّوق.

عزرا:

_دعكُما من الحنين، والغياب.

وهَيّا بنا نبحثُ عن مطعمٍ يقدِّمُ لنا"لحماً بالعجين" أو "بعض الكباب"، ومن ثُمّ نذهب لنستأجرَ غرفة في فندق، كي نستريح قليلاً

من هذا العذاب.

يقاطعهُما سومر ضاحكاً:

_حنين! لحم بالعجين! غياب وكباب وعذاب.

أصبحتَما تجيدُان الشّعر يا رفاق!!!

يقول آرام:

_لستُ بشاعر، لكنها الحروب هي التي تُنجبُ الشّعراء.

أتدري يا صديقي، كيف تبتلعُ حزنك، ثمّ تهضمهُ دونَ أنْ َيشعرَ بكَ أحد، فقط عندما تكتب!

الكتابة أنْ تستفرغَ روحكَ على الورق.

سومر:

_أما أنا، لأنّني درستُ في كليّةِ الآثار، أعشقُ الرّسم، واللوحات الأثريّة.

يردفُ آرام قائلاً:

_هلْ جربّتَ أنْ ترسمَ الأشياءَ كما هي، دونَ الاستعانةِ بشواهد.؟

هل جربّتَ أن ترسمَ الحُزنَ دونَ دموع! والحبَّ دونَ عناق، والفرحَ دونَ ابتسامة، والغياب دونَ محطةٍ أو قطار!!

هل جربّت أن ترسمَ الظّلامَ دون أنْ تُغمضَ عينيك!!

هل جربتَ أن ترسمَ أشياءَ بلا ملامح!!؟؟.

يتنهد عزرا وبهدوءٍ يتمتم :

_هيا يا رفاق،

لنتناولَ طعامنا الآن، ثمّ دعونا ننام، بعد هذا السّفر الشّاق

نحتاج للراحة.

في صباحِ اليومِ التّالي، استيقظَ الجميعُ عدا سومر، كان مستلقياً على ظهرِهِ، كالموتى تماماً.

عزرا :

_صباحُ الخيرِ.آرام..

_صباح النشاط والراحة.

ثمّ يركلُ سريرَ سومر، مخاطباً إياه:

_هيا استيقظ يا فتى فقد نمت بما فيه الكفاية (إنّ بعدَ النّوم موتاً طويلاً).

ضحك عزرا قائلاً:

_الشيء الوحيد الذي نستطيعُ التّظاهرَ بهِ، هوَ التّظاهرُ بالنّوم.

فتحَ سومر عينيه مردداً بسخرية :

_التّظاهرُ بالنّوم، أفضلُ منَ التّظاهر باليقظة.

آرام :

_ليذهبَ أحدُكم ويأتي لنا بالطعام.

ذهب عزرا وجلبَ الفطور، كان شهياً إلاّ أنّ الخُبز التركيّ يستفزُّ ذاكرةَ الحَنين.

آرام:

_اشتقتُ إلى خبزِ أمي الطازج، كانتْ تَسجر التّنور كلّ صباحٍ وتخرج لنا خبزاً لذيذاً تكسوه رائحةُ كفيّها.

إنها رائحةُ الوطن!!

يقاطعه سومر:

_نحنُ يا صديقي أبناءُ الفرات.أبناءُ مصباح الكاز، أبناءُ القمح، والشَعير، لا نستبدلَ الخبزَ بالكرواسان! غداً عندما نبيعُ المخطوطة، سنستبدلُ حتى أسماءنا.

يختم عزرا ضاحكاً.

تمرُّ السّاعات تليها الأيّام في مدينةِ (جيلان بينار)، وهم ينتظرون رسالةً من صديقهم يوسُف المقيم في اسطنبول تلكَ المدينة السّاحرة، يُقالُ بأنّها جنّةُ الله على الأرض.

يُحدّثُ آرام رفاقه قائلاً:

_كانتْ أمنيةَ حياتي، أن أرى تلكَ المدينةَ الجميلة، وأجوبَ شوارعها أنا وحبيبتي ميديا.

عزرا:

_ومن هي ميديا!! الّتي تَحشر اسمها في كلِّ موضوعٍ وكلِّ مناسبة؟

سومر :

_بالتّأكيد هذه حبيبتهُ التي تَركتهُ، وخانته، وسرقت أمواله ولازالَ على العهدِ والوفاء باقياً. كأيّ قصةِ رجلٍ شرقيٍّ.

يعقبها بضحكة.

آرام :

_يا صديقي. الرجلُ الشرقيّ وفيٌّ جداً، أمّا المرأة الشّرقيّة مهما عَشِقَتكَ، ستتركَكَ إن رأتْ شخصاً يرتدي قميصاً أجمل من قميصك، ستَتركَكَ هائِماً على قلبك.

يضيفُ سُومر :

_لا تنسى بأنّكَ ابن مجتمعٍ شرقيّ، هذا يعني أنّ أمكَ شرقيّة وأختك أيضاً.

يستهزئ عزرا ضاحكاً:_وحكومتنا شرقيّة، تؤمنُ بالرّقص الشّرقي، الرّقصُ على جُثثِ شعبها!

حتى الحُب يا صديقي مرتبطٌ بالسّياسة، ففي بلادنا لا يمكنُ فصَل الرّأسِ عن الرّقبة.

يُرْدِفُ آرام ساخراً:

_الفرقُ بينَ المرأةِ الشّرقية والغربيّة، كالفرق بينَ حكومتنا الشّرقية والحكوماتِ الغربيّة، فحكومَتُهمْ مجرد حكومةِ تكنوقراطٍ موظّفة لخدمةِ الشّعب، وحكومتنا خالدةٌ مخلّدةٌ إلى الأبد.

يضيفُ عزرا ضاحكاً:

_تنتقل السّلطةُ ديموقراطياً عندهم عن طريق صناديق الاقتراع، أمّا عندنا تنتقل وراثياً، عن طريق الأجهزة التناسليّة.

سومر :

_الحكومة الغربيّة، لديها الخَيار الاستراتيجيّ في اتّخاذ قراراتِ السّلطة، أما حكومتنا لديها(الخيار والطماطم) في سَلطتهم السياسية.!!!!

يتساءلُ آرام متبِعاً ضحكته، بنبرةِ حزنٍ دفينة :

_وما الذي فعلته الطّماطم، لتَسيلَ منها كلُّ هذه الدماء.؟

عزرا:

_الشّعوبُ الطّريةُ تستحق السّحق.!

سومر:

_طبعاً تقصدُ طريّة الطموحِ، وطريّة الفكرِ، يسهُلُ ترويضها.

يَسودُ الوجومُ والحزن ملامحهم.

في تلكَ الأثناء، يَرنُّ هاتف عزرا.

_ ألو ألو ، أهلاً يوسف.

_ أهلاً بكَ عزرا. كيف حالك، أعتذر عن التّأخير، لقد أخذتُ إجازةً أسبوعيّة من العَمل،

أنتَ لا تعرف الأتراك!. هم كالآلاتِ، بل أضلُّ سبيلاً، و لكنني أقنعتُ المدير "البترون" بأنّي مريض، ليوافق على الإجازة فتلكَ هي حجّة أيّ سوريّ.

عزرا:

_خيراً يا يوسف،. لا عليك.

سنأتي إلى اسطنبول قريباً، ونراك.

وتنتهي المكالمة.

_إنّه يوسفُ. يُخبرنا بأن نسافرَ إليهِ.إلى اسطنبول.

آرام:

_وأخيراً ها نحنُ نقتربُ من الحُلم.

يقاطعهُ سومر متهكماً:

_أكرهُ هذه الكَلمة (الحلم) لأنّ الأحلامَ عادةً لا تتحقق، تستطيع استبدالها (بهدف).ليكنْ هدفاً ثابتاً لا حُلماً ذا طيفٍ متحرك.

يُجيبُ عزرا ضاحكاً:

_نحنُ لدينا الكنز، ونحنُ الهَدف، فقط ننتظرُ منْ يُصيبنا.

***

(28/ تشرين الأول/ سنة/ 2013).

نسماتُ هواءٍ باردة، تلمّحُ بقدومِ شتاءٍ قارس، تلوّحُ بمعاناةِ اللّاجئينَ في المُخيمات الحدوديّة.

حيثُ الأطفال والنساءُ الهاربونَ من نيران الحرب، وأخاديد الوطن، إلى برّاداتِ الغربة،.هي الحرب إنْ لم تَقتلكَ أنهكتك!

ما أصعبَ أنْ تستبدلَ الوطن ومنتفعاتهِ بخيمة!!

وذنبكَ الوحيد، أنكَ طالبتَ بأبسطِ حقوقك،

طبعاً فالشّجرةُ المثمرةُ، يَبترُها الطّغاة من جذورها، بحجةِ وفائها للأرض.

استأجر الرفاقُ عربةً خاصّةً، لنقلهم إلى اسطنبول.

كان عزرا يجيدُ بعضاً من اللغة التّركية، بحكمِ أنّ أصلَ جدّته من مدينةِ ماردين.

وهي مدينةٌ تركيّة، متاخمةٌ للحدودِ السّورية.

المدنُ الحدوديّة التّركية، ذاتُ تركيبةٍ سكّانيةٍ مشابهة للمدن السّورية، وبينهم علاقاتُ قرابةٍ ومُصاهرة.

تمّ فصلُ الحدود بينها، بعد اتفاقية (سايكس بيكو)..

يَضعُ آرام متاعهُ وحلمهُ.بل هدفه في صندوق السّيارة.

يجلسُ عزرا إلى جانبِ السّائق، رغم معلوماته الضّئيلة باللغةِ التّركية، لكنّها أفضل من اللاشيء.المسافةُ طويلةٌ
تبلغُ (1200كم) إلى اسطنبول على الأقل.

سومر:

_هذا التركيّ ضخمُ البنية، يُذكّرني بوالدك يا عزرا.

التفتَ عزرا قائلاً:

_ألا تعلم بأن جدّتي أمّ والدي، تركيّةُ الأصل، وهذا الضخم قد يكونُ خالهُ!!

يعقبها بضحكة.

آرام:

_قرأتُ ذاتَ يومٍ في مقدمةِ (ابن خلدون)عن الأتراك، بأنّهم أكلوا لحوم الخيل، لذلكَ تراهم أقوياء البنية أشداء البأس.

يضيفُ سومر:

_نعم نعم. وأنا قرأتُ في كتابِ المدارج (لابنِ الجوزية) هذه العبارة: (كلُّ من ألِفَ ضرباً، من ضروبِ الحيوانات اكتسبَ من طبعهِ، وخُلقه، فإن تغذى بلحمهِ كان الشّبهُ أقوى.).

عزرا:

_لا أؤمن بهذه النّظريات، فأنا أكلتُ جميعَ أسماكِ نهرِ الخابور وإنْ وضعتموني في حوضِ ماءٍ سأغرقُ حتماً.

ضحكَ الجميعُ، و معهم السّائق التركيّ

الذي لم يفهم من الحديثِ شيئاً.

بحزنٍ يتمتم آرام، والحنينُ لحبيبتهِ يقضُّ مضجعَ قلبه في كلِّ حين:

_سباحٌ ماهرٌ لا يشقُّ له ماء، غرِقَ من أولِ غطسةٍ في ساقيةِ حبّها.

يردفُ سومر:

_يا صديقي.غرقى الحبّ لا يغرقون، لا يعطشون، على ضفافِ الرّوح يعومون.

عزرا:

_الكلُّ يغرق، حتى النّهر بعدَ أنْ يضنيهِ التّعب يغرقُ في البحر.

يسدل الليل ستائره المخملية بعد نهارٍ طويل، وينام الجميع، عدا السّائق الذي ارتاح هو الآخرُ من ثرثرتهم.

في الطّريق، بدأتِ السّماءُ تذرف دموع الحنين كما قلوبهم.

فقد سمعتْ حديثَ النّوافذِ وثرثرتها مع زخات المطر. ورعَشاتها مع زفزفةِ الريح ، ووهجِ فقاعاتِ شوقها ،

ثمّ أنينها المبلّل على زجاجِ اللهفة!!

في صباحِ اليومِ التّالي

استيقظَ الجميعُ على صوتِ السّائق، كان صوتهُ مزعجاً.

يقول عزرا

مترجماً كلام الرجل :

_لقد وصلنا مدينة اسطنبول يا رفاق.

يردُ سومر غاضباً:

_ولماذا صرخَ بهذه الطّريقة! كاد النّبضُ أنْ يتوقفَ في قلوبنا.

آرام:

_لا ذنبَ له، فهو لا يفهمُ لغتنا، ولا نفهمُ لغتَه، جميعُ الذينَ لا يستطيعونَ إيصالَ فكرتهم، يصرخون.

يأخذُ آرام حقيبتهُ من السّيارة، تلكَ الّتي تَحوي بداخلها أحلامهم.

أمّا عزرا.فيدفعُ أجرة السّائق ويتشكره.

ثُمّ يقول:

_ سأتّصلُ بيوسف، وأخبرهُ بأنّنا قد وصلنا.

آرام:

_فلتفعل هذا يا عزرا.لأنّنا إن ضعنا في هذه المدينة ،

فلنْ يجدنا لو بحث أربعين عاماً، سنتوه كتيهِ بني اسرائيل في الأرض.يعقبها بضحكة.

ينظرُ سومر بكل شغفٍ مشدوداً بكافة ملامحه.

وكأنه في عالمٍ آخر، هذه المرّة الأولى التي يرى فيها ميتروات، وباصاتٍ بهذا الحجم.

في هذه الأثناء.يتصلَ عزرا بيوسف.

_مرحباً يوسف.

نحن الآن في مدينة اسطنبول في منطقة اسمها أكسراي(Aksaray).

يوسف:

_جميل. هذه المنطقة أغلبها منَ السّوريين والعرب.

اجلسوا في أيّ مقهى، وأنا سآتيكم، أحتاج فقط لساعة منَ الزمن، مسافة الطّريق.

_حسناً نحنُ بانتظارك.

يردُّ عزرا مُنهياً مكالمتهُ.

ثمّ.منتظراً قدومه.

آرام:

_هيا بنا ننتظرهُ في المقهى، فقَد أنهَكتني هذه الحقيبة.

يجيبُ سومر ضاحكاً:

_بداخلها صندوقُ أحلامنا، والأحلامُ عادةً ما تكونُ ثقيلة!

***

اسطنبول.

تلك المدينةُ الّتي هامتْ عشقاً بالبحرِ فطوّقتهُ واحْتضنَته

منذُ بدءِ التّكوينِ الأوّل.

مدينةُ الجمالِ والحضاراتِ، والثّقافة.

مدينةُ المآذنِ والكنائِسِ،

وحقيقتنا التّائهة، تسرُّ النّاظرين.

تتنفسُ فيها رائحةَ التّاريخِ العابقة بالأصَالة.

المدينةُ التي بارَكتها السّماء، بتراتيلِ المَطر.

أنشدتها غيمةٌ، على مسامعِ الأرضِ، فانتشت.

مدينةُ الغيمِ الشّاردِ في الأفُق.

نَهارُها كالحقيقةِ الوضّاءة

وليلُها دامسٌ شهيٌّ، يثيرُ رغبةَ المُتأمّلين.

(اسطنبول).متقلّبةُ الأجواءِ والطقوس، كمزاجيّةِ المرأةِ الشّرقية
حيثُ تتساقط في الرّبيع، ثمّ تُزهرُ في الخريف.
في الصيفِ تصبح غائمةً جزئيّاً، ثمّ تُشرقُ في الشّتاء.

عزرا:

_يا إلهي!!. ما أجملَها، ألا ترونْ! لا يوجدُ فيها منزلُ لِبنٍ واحدٍ، كلّها ناطحاتُ سَحابْ.

سومر:

_بالنسبة لي، أرى نهرَ الخَابور، أجمل من مضيقِ البوسفور.

آرام:

_هو الجَمالُ نسبيٌّ، يا رفاق
لا يمكننا أنْ نجزم هل منازلُ الطين البسيطةِ أجمل،
أم ناطحاتُ السّحاب!

عزرا:

_رائحةُ الفَقرِ في أُنوفكِم، وإنْ بقيتم بهذهِ الرّجعية
فسيخيبُ سعيكُم.

آرام:

_لم أقلْ شيئاً!!

إنما كلُّ عينٍ ترى الجمالَ منْ منظورها الخاص،
فبعد معرفةِ ماهيّة الشّيء، نحكمُ عليه، أهوَ جميلٌ أمْ لا!
دائماً النّظرةُ الأولى تخدع.
أرأيتَ قنابلَ الفُوسفور التي تُلقيها الطّائراتُ في بلدنا؟
إنْ كنتَ تحبُ المفرقعات الناريّة، ستكرهُها حتماً.
أنا مثلاً أحبُّ الكاتشب، ولكنّي أكرهُ الدِّماء، رغمَ أنّ لِكليهما اللون نفسهُ، إنّما بعدَ إدراكنا لعمق الأشياء، يتغيرُ منظور العين..

سومر:

_كما قال آرام، الجمالُ نسبيّ ومعقّدٌ في نفس الوقت، لو لم نعرف ماهيّةَ المخطوطة التي بينَ أيدينا لما كنّا هنا الآن.

يذهبونَ بعد هذا الحوار إلى المقهى، فيأتي النادل.

النادل (باللغة التركية):

_تفضلوا إخوتي.ماذا تشربون ؟

عزرا مترجماً:

_يسألكم ماذا تشربون!!.أنا سأطلبُ الشّاي.

وأنتم ؟

سومر:

_وأنا أيضاً.

آرام:

_أنا أريدُ قهوة سادة.

عزرا:

_هم المثقّفون، لا يستطيعونَ الحياة دون القهوة.

يقول آرام:

_لا يمكنُ فصل القهوةِ عن الثّقافة.

يتمتم سومر ساخراً :

_نعم. فكيفَ لكَ أنْ تكونَ مثقّفاً، واسمُ أبيكَ"خلف"

لا "فوكو".أو "دوستيفسكي".! وأنتَ لا ترتشف القَهوة الصّباحيّة

على دندناتِ فيروز.!!؟؟؟

عزرا:

_قديماً كانَ الشّاعر يعيشُ في الصّحراء، حافياً، عارياً

في الشّمس ؛ ويكتبُ آلافَ المعلّقات من طرفِ جَيبه.. أمّا الآن.المثقّفُ

يحتاجُ لبرميلٍ من القهوة، وزقزقة مئاتِ العصافير، ليكتبَ خاطرةً بحجم

كمشة "البزر"!

سومر:

_الثّقافةُ هي الطّورُ الأول للديكتاتورية، فقديماً كان المُثقّف يحاولُ أنْ يصلَ بكتاباتهِ إلى عقولِ النّاس، أمّا الآن فالمُثقف يُريد منك أن تصلَ إلى عقلهِ المتحجّر، بمصطلحاتهِ البالية.

آرام:

_كفاكم ثرثرة، عندما لا نحبّ الشّيء نُظهرُ مساوئه، وأنتم تكرهونَ القهَوة، لذا تبحثونَ عن ألفِ سببٍ لكُرهكم لها.

يأتي النّادلُ مرةً أخرى ليسألهم، إن كانوا يريدونَ شيئاً.

يتكلّم مع عزرا كونهُ يجيدُ فَهْمَ اللّغةِ التّركيّةِ قليلاً.

آرام:

_عن ماذا تحدّثتما ؟

عزرا :

_لا شيء، فقطْ عرفَ بأنّنا سوريون، قالَ بأنّه يحبّ سورية والشعب السّوري.

يضيفُ آرام:

_ما بينَ الحُبّ والشّفقة، شعرة، تميّز بينهما اللهفة، لمْ أرَها البتّة بينَ عينيه، بل كانَ حزناً، لذلكَ عرفتُ أنّها شفقة.

يُقاطعهُ سومر:

_لقدْ تأخّرَ صديقكَ كثيراً يا عزرا!

_ سيأتي لا عليكْ.

فالغائِبُ عذرهُ معه.

يُرْدِفُ عزرا:

_أوه. نسيتُ أنْ أخبركم، بأنّ يوسفُ متشددٌ دينياً خذوا حذركم في نقاشاتكمْ مَعه.

سومر:

_وماذا يفعلُ هنا إذاً! فليذهبَ إلى جبالِ (تورا بورا) في أفغانستان

_نعم صدقتَ يا سومر...

يقولُ آرام ساخراً :

_أو ليذهبَ إلى دولةِ الخلافةِ في العراق والشام، فهناك سيصل دون أجرة، و مباشرةً إلى الجنة.

عزرا:

_نحنُ بحاجتهِ الآن، لذلكَ نَصحتكما، ألّا تَدْخلا في جدالٍ عقيم معه. ما يَهمّنا الآن هو بيعُ القطعة التي معنا، لنترك السّياسة والدّين، فأمامَ المالِ، نُصبحُ كلّنا على دينٍ واحد (كما قالَ سارتر).

بينما يَختمُ عزرا حَديثهُ، يسمعون وقعَ خطوات يوسف، قادماً من بعيد. كانَ نحيفاً، أشعثاً، أغْبر، تميلُ بشَرتهُ للسُّمْرة كأيّ سوريّ، تفوحُ منْ جَسدهِ رائحةُ اللّجوء.

***

(29/ تشرين الثاني/ 2013م) مِنطقةُ كولسيو(Gülsuyu)

(كولسيو).تلكَ المَركونَةُ، على سَفحِ جبلٍ مطلٍّ على اسطنبول، لاهي بقريةٍ، ولا هي بمدينة، تبدو جميلةً كالأنثى الّتي تقعُ في عِشقها من النّظرة الأولى، ثمّ ما تلبث أنْ تندمَ على ذلكَ، تَحتضنُ الوهمَ، وتُخفيْ ما تبقّى مِنْ حَقائِق بينَ ثناياها، في النّهار جميلةٌ وهادِئة، لكنّها في اللّيل مرعبةٌ موْحِشّة، لا يدخلها إلا الجيشُ بمصفحاتهِ! بسببِ خُطورَتِها.

سُكانها أتراكٌ، أغلبهمْ مُلاحَقونَ منْ قِبَلِ السّلطاتِ التُّركيّة.

توجدُ فيْها عائلاتٌ فقيرة، لا علاقةَ لَهمْ بالمافيا، أجرةُ المنازلِ رخيصةٌ، لذلِكَ أقامَ يوسف فيها، حالهُ كحالِ غيرهِ من الأتراكِ الفقراء.

يصعدُ الثّلاثة إلى التّلةِ ورابعهم يوسف، والذي كانَ على علمٍ بموضوعِ المخطوطةِ، التي يَملكها آرام، فقد أخبرهُ عزرا مُسبقاً عنها عندما كلّمه على الهاتف.

لفتَ انتباههم نساءُ تلكَ المِنطقة، فأغلبهنّ جميلات، بحكمِ الطّبيعةِ الجبليّة، فمجرّد الصّعود إلى التّلةِ رياضةُ تَسلّق.

في الطّريق يتحدثُ عزرا :

_ المرأةُ التّركيّة أنيقةٌ جداً، كنتُ أشاهدهنّ في المسلسلاتِ التركية، والآن عن قرُب، لكنهنّ على التّلفاز أجمل.

سومر:

_معكَ حق يا عزرا.تبدو الأشياء جميلةً عنْ بعد، و عندما نقتربُ منها، تظهرُ لنا التّجاعيد.

ابتسم آرام مقاطعاً:

_تقصدْ عن قُرب تَظهرُ آثارُ الماكياج الذي لا يغّيرُ الحقيقةَ، بلْ يُخْفيها.

يُرْدِفُ عزرا ضاحكاً:

_على رسلكَ يا رجلْ، الماكياجُ القليل؛ لا يفسِد للودّ قَضية.

سومر:

_الأقنعةُ زائلة، الزّمن كفيلٌ بكشفها.

_نعم هو كذلك يا رفيق.

يردّ آرام:

_الزّمن يتكفّلُ بإزالةِ الأقنعة، فالنّساءُ يضعن المِظلاّت، ويتركن حبهنّ للمطر، لأنّ المطرَ يزيلُ الماكياجَ ويكشفُ حقيقتهن.

عزرا:

_تبقى المرأة جميلةً، مهما تكلّمنا...

آرام:

_وما المرأة إلا تشوّه جينيّ للرّجل.

عزرا:

_ولمَ لا يكونُ العكس؟

آرام:

_التّشوهاتُ تنشأ من الأَصل، والمرأةُ تشكّلتْ من ضلعِ الرّجل وهذا بحدِّ ذاتهِ يُعتبرُ تشوّهاً.

سومر(مقاطعاً نقاشَهما):

_وما نحنُ إلاّ تشوّهات جينيّة للقرود، حسبَ نظريّة التّطوّر.

يتدخّل يوسُف غاضباً :

_جميعُ الأديَان السّماويّة، تنقضُ نظريّة ذلكَ المعتوه (داروين).

يتمتم عزرا بهدوء :

_ألمْ أقلْ لكما ألاّ تتحدثا بمِثلَ هذه المواضيع أمامَه!

إذاً تحمّلا عاقبةَ ذلك.

يضيف يوسف:

_هل يوجد عاقلٌ يؤمن بتلكَ النّظريّة ؟!

إنّما هذا حالنا كشرقيين، ففي(عام1991)

اِنهارَ الاتّحادُ السّوفييتيّ، وبقيتْ دكاكينهُ وأفكارهُ في أغلبِ بلادِنا ليومنا هذا، وكذلكَ نظريّةُ التّطور، أثبتَ الغربُ عدمَ صِحّتها، مع ذلك مازال الشّرق يؤمن بها إلى يومنا هذا!

آرام:

_ومن قال لكَ يا يوسُف، أنّه قد تمّ نفيها عند الغَرب!

ففي كلِّ يوم، يكتشفُ العلماءُ شيئاً جديداً، مُستندينَ إلى هذه النّظرية.

يضيفُ سومر (ساخراً) :

_اليابانيون يدرسون إمكانيّةَ بناءِ مصعدٍ يَصلُ الأرضَ بالفضاء، وأنتَ يا يوسُف لا تؤمن بصحةِ نظريّة التطور!

يوسف:

_كلُّ فكرةٍ بلا تجربة هي نكرة، والنّظريّة الّتي لا تُطبّق على الواقع، تبقى مُجرد نظريّة مهترئة.

وجميع نظريات (داروين)

لم تجرّب على الواقع، خاصّةً تَحوّلُ النّوع إلى نوعٍ آخر (قرد إلى إنسان) مثلاً،

فقطْ عبقريتكم في إثباتِ تحوّل أشياءَ ثانويّة في النوعِ الواحد (كتطور منقار الطّائر مثلاً).

سومر (ضاحكاً) :

_لماذا الحمض النوّويُّ للإنسان، يتطابق مع القرد

بنسبة(96 ٪) ؟

يوسف:

_إنّها نظريةٌ وليستْ حقيقة علميّة، فالنّظريّة مجموعةُ قوانين، والقانونُ مجموعةُ فرضيّات، والفرضيّةُ هي شيءٌ غيرُ مؤكد، وهذه النّظريةُ، كغيرِها من النّظريّات، حتى("داروين")

نفسه اعترفَ بأنّه لن يستطيع إثباتَ نظريّته تلك.

حيثُ قال:

(إنّ تغيّر المخلوقات في نظريّته إلى مخلوقاتٍ أخرى، أمرٌ لا يمكنُ إثباته)

هذا بحدِّ ذاتهِ اعتراضْ.

آرام:

_ومن قالَ لكَ إنّها نظريّة! هي حقيقة علميّة تؤكّدها عدةِ علوم مثلاً (علمُ التّشريح المُقارن، علم الأجنّة، علمُ الوراثة، علمُ الأحافير).

يقولُ عزرا مقاطعاً :

_هكذا همُ السّوريون، نقاشاتهم لاتُسمنُ ولا تغني من جوع،

(بشرٌ، دببة، أسودٌ، قرودٌ سودٌ!) لا يهمّنا الآن سوى علمُ تطَوّر المُخطوطةِ التي بينَ أيدينا وتحوّلها إلى دولارات.

بعدَ سفرٍ طويل، يرتاح الجميع، ثمّ يقوم يوسف بواجبِ الضّيافةِ، وتحضير الطعام.

ذلك المنزل الحجريّ، في منطقةِ (كولسيو) حيثُ الفقرُ يلاحقُ اللّاجئينَ أينما حلّوا.

يحملُ حلم كلِّ شابٍ بالإيواءِ ليس إلا!

كانتْ حالة الجدران والأسقف التي أنهكها المطر رثة جداً، و الفوضى تعمُّ المكان.

يُذْكر أنّ أجرته تبلغ(خمسين دولاراً) في الشّهر.

بصمةُ الشّقاءِ لا تخلو من غرفهِ المقهورة،

ليس مهماً حالهُ وفوضَاهُ العارِمة، بقدر الهدف منه

فهو الآن يُسمى منزلاً!

قد استطاعَ أن يؤمنَ له الأمانَ، ولو بسرير بسيطٍ، يغفو عليه مع ملاءةٍ قديمة تعطيهِ بعضَ الدفء وتَحميهِ منْ صقيعِ الغُربة.

بعد أن انتهوا من تناول الطّعام، بدأوا باحتساء الشّاي.

يوسُف:

_لي صديقٌ في ألمانيا، اسمهُ آدم، يقيمُ في مدينة اسمها (لوثر فيتنبيرغ) تقعُ شرقَ ألمانيا، منذ فترة تكلّم معي قال بأنّ لديه أصدقاء في تركيّة، ثُمّ سألني إنْ كنتُ أحتاجُ شيئاً.

يردّ سومر :

_نعم، قرأتُ عن هذه المدينة، وسُمّيتْ أيضاً باسم (مارتن لوثر)، هو راهبٌ ومفكر لاهوتْ ومطلقُ عصر الإصلاح في أوروبا، عُرِفَ بتأسيسِ المذهب البروتستانتي المسيحيّ وكان معارضاً لصكوك الغفران.

يضيفُ قائلاً :

_كم مارتنْ نحتاجُ ليُصلحَ بلادنا، الّتي لايزال رجالُ الدّين فيها يتعاملون بصكوكِ الغفرانِ، وتهريبِ الشّبابِ دونَ فيزٍ إلى الجنة!

هي المعابدُ وزارةُ تنميةٍ سماويّةٍ مهمّشةٍ، ما إنْ تبدأ الحَرب حتى تُصبحَ وزارة دفاعٍ لتَجنيدِ الشّباب.

لسنا ممن يُريدُ فصلَ الدّينِ عنِ الدّولة، بل فصل الدّينِ
عمّن يدّعون أنهم رجال الدين، و هم أكثر من أساءَ للدّين والدّولة .
يتنهد عزرا مضيفاً :
_دعوا الوطنَ وشأنه، فنحنُ لسنا آباءً لذاك الوطن، ثمّ التفتَ إلى يوسف سائلاً إياه :
_وبماذا سيفيدنا صديقكَ هذا؟
يوسف:
_هذا الشّخصُ "بندوق" (البندوق كلمةٌ تُطلق على الشّخصِ الماكر، الذي يستخدمُ ذكاءهُ بخبث، للتّملق والوصولِ إلى هدفه دون أيّ حسٍّ إنسانيّ، ويُقال أيضاً: البندوق هو عُصفورٌ ناتجٌ عنْ تزاوجِ (الكنار والحسّون).)
ما أثار استغرابي أنه كثير الترحال وكأنه سائح لا لاجئ!
المهم أنّهُ قبلَ أنْ يُسافرَ إلى ألمانيا، كانَ يَعملُ في تهريبِ اللّاجئينِ منْ تُركيا إلى اليونان، عن طريقِ قواربَ مطّاطيّة وهذهِ نِهايةُ كلّ(مهرّب")، بعدَ أنْ يقومَ بتهريبِ الشّبابِ ليجمعَ المالَ، ويهرب هوَ الآخر بعدها.
و في كلّ يومٍ نَسمعُ بغرقِ عائلةٍ سوريّةٍ.
ما الذي فعلهُ هذا الشّعبُ ليُحَارَبَ، برّاً، وبحراً، وجوّاً!؟

جميعُ العقولِ هاجَرتْ، وتركتْ وطنها بلا عقلٍ
حافياً عارياً، كالمجنون!
فالذي لمْ يُغرقهُ البَحرُ ؛ أغرقتهُ أمواجُ الغربة.
ذلكَ البَحرُ : رجلٌ كهلٌ، زَبَدُهُ دموعُ الأمّهاتِ المالِحة، دوّاماتهُ عيونُ أولئكَ الغرقى، أمواجُهُ على هيئةِ تَجاعيدٍ، تَجرفُ أحلامَ الشّبابِ إلى القارّة العجوز.

يَستمرُ الحديث، وآرام جالس يرتدي صمتهُ على مَتنِ الشّرود حيثُ يستفزُّ ذاكرتهُ طيفٌ عابرٌ لحبيبتهِ ميديا، ليعودَ به الزّمنُ إلى ما قبلَ الحرب، الّتي وضعتْ المسافات، وباعدتْ بينَ المحبّين، فما بينه وبين ميديا طريقٌ بعيد، بعيدٌ جداً لذلكَ كلّما داهَمهُ الشّوقُ، صمّمَ جسراً من حنين.
دائماً تَستفزُّنا التّفاصيلُ الصّغيرةُ، كوخزِ الإِبَرِ ورَذاذِ المَطر.
هوَ الحنينُ، يَجثُمُ ليلاً على صدرِ التّناهيد، ويَسعلُ غُبارَ الذّكريات.
وبعدَ مُنتَصَفِ الغيابِ بنبْضتين، يضْبطُ توقيتهُ على خَطٍّ طولِ الغِياب، حيث الذّكرياتُ، تفقدُ حياءَها، ثمّ تَخلعُ عنها ثوبَ وقارِها، وتضاجِعُ وحدتها، في الّليل وحده، يُصبحُ للأرقِ مخالب يغرزها في أوردةِ الذّاكرة،

ويمتشق الحزنَ سيفاً، يجزُّ ناصيةَ الفرح، ويصلبهُ على قارعةِ الشّفاهِ، محتسياً نخبَ الدّموع.

_تلكَ تنهيدةٌ تُمزِّقُ حنجرةَ الصّمتِ يا آرام.

يقول سومر:

_وكأنّ جسدكَ هنا، وتفكيركَ في مكان آخر يا صديقي!

يجبُ علينا أنْ نحصر جُلّ تفكيرنا بالحُلمِ الذي بين أيدينا الآن.

عزرا:

_لابدّ أنها هي، تلك الفتاةُ التي تَسرقُ تفكيره(ميديا)....

هذا ما نعرفه عنها، اسمها فقط.

لِمَ لا تُحدّثنا عن صفاتِها يا صاح!

سومر:

_غريبٌ أمرُ هذا الرّجل، ينتقدُ المرأةَ ويعشقها في آنٍ واحدٍ.

آرام:

عن ماذا أحدثكم يا رفاق.

مهما بالغتُ في وصفها لنْ تنال حقّها، هناكَ أشياء لا يمكنُ وصفُها، لأنّ الوصفَ القليلَ سيكونُ هِجاءً.

هي امرأةٌ من ضوء، تمتطي صهوةَ الشُّعاع، وتخترقُ سِتارةَ القلب، امرأةٌ تَسرقُ بابتسامتها النّسيمَ من كفّ الخريف، و تهشّ بحضورها البهيّ قطيعَ الحنين، امرأةٌ مدجّجةٌ بالمشاعر، تُجيدُ رشقَ النّظراتِ عنْ بُعد، ورماية القُبلِ عن قُرب، امرأةٌ بلا عقل، سلاحُها الوحيدُ قلبها.

امرأة مزاجيّة الطّباعِ كطقسِ اسطنبول، تتساقطُ في الرّبيع ثمّ تُزهرُ في الخريف، متقلّبةُ الطّقوسِ، ففي الشّتاء يصبحُ قلبها حطباً لتنسيك ذاكرة البرد، وفي الصيف يصبح نافذة تعبث كنسمةِ هواءٍ عليلَة، امرأةٌ شاعرةٌ وطبّاخة، عندما تَجوعُ عاطفيّاً تطبخُ مشاعِرها على نارٍ هادئة. تسمعُ في الصّباحِ طبلةً، وفي المساءِ بيتهوفن، تعشَقُ أنينَ النّاي المبتور والدربكة، تُلمِّعُ عقلها عندما تلتقي بحبيبها و شفاهها عندما تَنامْ، نزاريةٌ ليلاً، ومستغانميّةٌ صباحاً، تشتعلُ بشرارةِ حبٍّ وتنطفئُ كشمعةٍ بنسمةِ هواءٍ عليلة، امرأةٌ قويةٌ كالحديد، هشةٌ كالخشب!

يسترسل آرامُ مدندناً حبها على أوتار الخيال.

_أنثى مجبولةٌ بالسّنابلِ والورود، هجينةٌ من عَبق الياسمين ودقيقِ القمح، تقطنُ على نخيلِ قامتها النّوارس، وفي غمّازتيها تعششُ الفراشات.

إذا حضرتْ، غادرَ القَمرُ صدرَ السّماء، جرّتْ النّجومُ أذيالها، ولملمت المثقفاتُ أكوابَ قهوتهن وغادرن في الزّحام.

امرأةٌ في عينيها صفصَافةٌ فراتيّةٌ، وفي شَفتيها كوارةُ عسَلٍ جبليّة، وفي مَفرقِ حاجبيها مدخلُ أثينا العَظيمْ.

إذا رقصتْ، فاحَ من مساماتِ جلدها عطر كرائحةِ التّراب بعدَ المطر، وإذا نامتْ غَفتْ نَخلةٌ على ضِفافِ الخَابور، وإنْ حَزِنَتْ، ناحتْ على خَصرِها قمرّية، صوتُها عَذبٌ زُلال كسمفونيةٍ بابليّة، وصمتها مُريبٌ كمِلحمةٍ جلجامشيّة.

أنثى إذا ابتسمتْ جرَّ كانونُ أذيالهُ، و شمّرَ آذار عن أغصانهِ معلناً ربيعاً سرمدياً.

هي ليستْ كالنّساءْ، بل هديّةٌ منَ السّماء.

_ما أعذبَ هذا الوصفُ يا آرام.

يقولُ يوسُف، والدهشةُ تعتري ملامحهُ ثُمّ قلبه.

_أيوجدُ امرأةٌ بتلكَ الأوصاف ؟!

سومر:

_هو الحبُّ يا رفيق، كالجبّ يناديكَ بملء فَيه ، أنْ ألقِ بدِلاءِ روحكَ، وانتظرْ لتأتيكَ محمّلةً بعشقٍ زُلال، أو حَصى خيبات.

يقاطعهم عزرا ضاحكاً :

_الحبُّ جريمةٌ، تحتاج لأدلةٍ ملموسةٍ، كالدّماء، و"أحمرِ الشفاه" وبصماتٍ كالقُبلات.

حيثُ أنّه لا توجدُ جريمةُ حبٍ كامِلة.

يوسف:

_الحب جريمة يقضي العاشق محكوميته خلف قضبان القلب يتراوح حكمها من المؤبد إلى الزواج!

آرام :

_يبقى الحبُّ طفلاً شقياً يرضعُ العشقَ من نبضِ القلب إلى أنْ يُفطمَ بالزواج.

سومر :

_أما أنا، فلنْ أتزوج إلاّ الفتاةَ التي سَتختارُها والدتي.

_هل تذكر طُفولتكَ يا سومر ؟

يسأله آرام :

_عندما كانتْ والدتكَ تذهبُ إلى السّوق، فتجهشُ أنتَ بالبكاء لأنّها لمْ تصطحبكَ معها!

ثمّ تعود لكَ ببنطالٍ فتجدهُ فيما بعدُ ضيقاً لتركنه في خزانةِ النسيانْ!!

كذلك الأمرُ، عندما تختارُ لكَ أمكَ عروساً.

يوسف :

_أنا مع سُومر، سأتزوج ما تختارهُ لي التّقاليد، فوالدي منذُ كنتُ صغيراً، اختارَ(("حير")) لي ابنةَ عمي.

(زواج الحيار) :

عادةٌ منتشرةٌ في مدينةِ الحسكة، ومناطقَ شرقَ سُورية حيثُ يتمُّ بموجبهِ حجزُ الفَتاةِ لابنِ عمّها منذُ الصّغر إلى أن تَكبر، فتتزوجَ منهُ قسراً، حتى إن رفض الزواجَ بها، بإمكانهِ منع أيّ خاطبٍ بالتقدم إليها، لتبقى عانساً إلى أنْ تموت).

عزرا:

_أما أنا مع الحب، ولكني ضدّ فكرةِ الزّواج، فالحبُّ شيءٌ حسّاس وليسَ جريمةً أو جِنايةً، حتى نَحشرَ بهِ المَحاكمَ والشّرطةَ، والدّوائرَ الرّسميّة.

الارتباطُ فكرةٌ مريبة، وأنا أكرهُ المَحاكمَ يا أصدقاءْ.

آرام:

_وحُرمت على وجوه العاشقين التجاعيد.

قفوا عند مفارق العشق ، اعشقوا بشتى الطرق.

لا تتركوا قلوبكم وحيدة فتغزوها جيوش الشيب والصقيع.

مشطوها.

صففوها.

لمعوها بأناقة.

واعشقوا أنفسكم إن لم تجدوا ما تعشقون.

أترى؟

أترى ذلك الشخص القابع في المرآة؟

هو أنت

نعم أنت

ولكن بلا ملامح.

أمعن النظر إليه.

حاول أن تعانقه.

قبّله بكل ما أوتيت من لهفة.وإن خانك اكسر المرآة وامشِ عليه حافي القلب، فالدماء دموع.!

سومر:

_نحن الذين اعتدنا على حضن الوسائد، نجد أن الزواج فكرة تافهة.

ليذهب كل منا فيحتضن وسادته علها تحبل وتنجب لنا أحلاماً سعيدة.

ثم يخلد الجميع إلى النوم.

تستيقظ الشّمس، كعادَتها ويستيقظ الواقعُ بعدَ نومٍ طويل وأحلامٍ سرمدية.

يرنّ هاتف يوسف، فيبتعد قليلاً ليجيبَ على اتصاله، ثمّ يعود ليُخبِرَهم بأنّ هناك شخصاً من أقربائه يُدعى داوود، سيأتي ليقيمَ معهم

ردّ الأصدقاء عليهِ بغضبٍ عارمٍ :

_كيف لهُ أنْ يقيمَ بيننا كيف لنا أن نكملَ عملنا، يا يوسف!

أنت تعلم مدى حساسيّة هذا الأمر، وضرورة كتمانهِ عن الناس.

يوسف:

_لا عليكم، أعدكم لن تَطولَ مدّة مكوثه عندنا، سأعمل جاهداً على هذا.

جاء داوودُ ومكثَ بينهم، وطبعاً لم يعلم بأيّ شيء.

تسامر الأصدقاء عشيّة وصوله، فهو ضيفٌ جديد، وكالعادة أخذوا يحدثونه ويتحدثون إليه كي لا يشعر بأنه غريبٌ بينهم، وفي طبيعةِ الحال، دفعهمْ حنينهم إلى الوطن أن يرشقوه بوابلٍ من الأسئلةِ، عن حال الوطن وأهله وآخر الأوضاع هناك.

داوود يتمتم بغصةِ حُزنٍ موجعة :

_آهِ يا شباب، الوطنُ غريب شاحبٌ، دموعه غيثُ قلوب الأمهات، وابتساماته غائرة، كعيونِ رجلٍ مسن طمست تجاعيد الهموم ملامحه، حتى بات الفرح تنهيداتٍ حائرة، على ثغر مَن هجروه.

الوطن يتألم آناءَ اللّيل، وأطرافَ النّهار، وأبناؤه مرابطون على جوعهم وبردهم وارتجاف قلوبهم ،أمّا سماؤه، لابُدّ أنّها تحتفظ بتوسُّلاتِ الثّكالى، ودعواتِ اليتامى، وابتهالاتِ المظلومين.

تبادل الجميع أحزانهم بملعقةٍ واحدة.

فالألم هو الصّديق الذي يجمع كلمتهم وشملهم، حتى وإن تغرّبوا في أصقاعِ الكرةِ الأرضيّة كلها.

أمضى الرفاق وقتاً مع داوود، يتسامرون في كلّ ليلةٍ بأحاديث وأخبار من هنا وهناك، مُتناسينَ ذلك الهدف والحُلم الذي يجمعهم مؤقتاً، لحين مغادرةِ داوود المنزل كما وعدهم يوسف.

بعد يومين من إقامتهِ وفي ساعةٍ متأخّرةٍ من اللّيل، يستفيق الجميعُ على أصواتِ ضجيجٍ غريب، فيهرعَون مذعورينَ ليستكشفوا الأمر. شاهدوا داوود في حالة هستيريةٍ مُرعبة!

لقد خَرّبَ وكَسّر كلَّ ما تحتويه الغرفة، حتى أنه كان يضربُ رأسه ويديه بالجدار كالمجنون تماماً.

ذُهِلَ الرفاق وحاولوا تهدئته، أحضروا لهُ كأساً من الماء ليشربَ، رمى الإناءَ وصرخ بأعلى صوته أبعدوا هذا الماء عني، أيّ شيءٍ إلا الماء، أصابتْ الحيرة أفئدتهم لِما حلّ بالرّجل، فما كان منهم سوى إسعافه لأقرب مشفى، ما إن خرج إلى الهواء حتى جُنّ وبدأ يُهلوس: لا أريد أن يدخل الهواء إلى رئتي لا أريده، أبعدوا عني الهواء أبعدوه هيا.

وصَلَ الشباب برفقة داوود إلى الإسعاف، و تحدّثوا مع الأطباء عمّا شاهدوه من حالةِ داوود.

بعد الفحوصات تبيّنَ أن داوود لا يعاني من أيّ عَرضٍ مرضيّ ، لكن خَمّن أحدُ الأطباء أنّه ربما يكون (مدمن مخدرات).

تَحدثَ عزرا مع يوسفُ كونه يعرفه وهو أعلم بهِ وبوضعه بشكلٍ عام، وأكّد يوسف أنّه من المستحيل أنْ يكونَ من مدمني المخدرات، فهوَ رجلٌ فقيرُ الحال وبسيط جداً.

أكمل الطاقم الطبيّ فحصه بشكل تام وتبيّن أنه لا يَشكو من أي شيء، وما حدثَ معه لا يوجد له أيَّ تبرير صحيٍّ يُذكر.

اقترح الرّفاق بقاءَ داوود في المشفى لليوم التالي، ليُشرف عليه الأطباء، ويراقبوا حالته بشكلٍ جيد.

عاد الأصدقاء إلى منزلهم، والتساؤلات لا تفارقهم تُرى هل للجن، وما يُدعى الماورائيات

سببٌ فيما جرى له!

هذا أقرب التوقعات! عندما لا نجد سبباً صحيّاً للحوادث

ننسبها إلى العالم السّفلي.

يتحاورُ الجميع بُرعبٍ قد أطبقَ على صدورهم.

عزرا :

_يا رفاق أيُعقل أنْ تكون المخطوطة!!

صمتَ الجميع، وهم يتبادلون نظراتَ الخوف والتّشتت فيما بينهم.

آرام :

_رباه أتُراها كَذلكْ ؟

بلعَ ريْقه بصعوبةٍ وأغمض عينيه متنهداً ذلك الخوف الذي شَقّ صدره.

مضى يومان كزفراتِ الموتِ وشهقاتِ الحَرب على أرواحهم،

حتى جاء ذاك الخبر. لقد مات داوودَ في المشفى دونَ وجود سبب واضح للوفاة.

حشرَ الرُّعب أوصالهُ في حناجِرهم، وأكثرهم يوسُف.

يوسف:

_أعتقدُ أنّ المخطوطةَ هي السّبب يا رفاق، لأنّ الأطبّاءَ عجزوا عن تحديد علّته، أيُعقلُ أنّها قدْ رُصِدَتْ من مُلوكِ الجان! وعندما تمّ نقلها منْ مَكانها، بدأتْ قبائلُ الجنِّ تنتَقمُ منّا، وكان قتلُ داوودٍ، كإشارةِ تنبيهٍ لنا!

سومر:

_أنا لا أؤمنُ بذلكَ ، إلاّ أنّني قرأتُ عنِ الرّصد : بأنّه اتفاقٌ بين السّاحرِ والجان، حيثُ يَحرسُ الجِنُّ الكنزَ كيْ لا يَصِلَ إليهِ أحد.

ومِنْ أشكالِ الرّصدِ عندَ الحضارةِ البابليّة : الخروف والكبش والحِمار، أمّا عندَ الرومان، فكانوا يستخدمونَ دَمَ الأفعى، أو دمَ العَبدِ الأسْود، أمّا اليونان قديماً، فكانَ عنْ طريقِ دم الأميْرةِ الحسناء.

هناكَ نوعانِ للرّصد :

_رَصدٌ روحانيٌّ: حيثُ تُستَخدمُ فيه الرُّسوماتُ أو الكتابةُ غير المفهومة، وتُسمّى ((الطّلاسم)).

_رَصدٌ عِلميٌّ: تُسْتَخدمُ فيهِ مُركّباتٌ طبيعيّةٌ، أو كيميائيّة.

يُقاطعهُ عزرا قائلاً :

_أَجُننتَ يا رجل؟.طلاسِمُ! ودماءٌ! وقتل !

هلْ يوجدُ عاقلٌ يُؤمنُ بهذهِ الخُرافات ؟

أنتم لا تختلفونَ، عنْ آبائكم وأجدادكم بشيءٍ من الجهل
عندما زرعوا في عقولهم هذه الخزعبلات، من السّعلوة، إلى سحال أبو الطبق، ليبقىَ تفكيرهُم محصوراً ضِمنَ هذا النّطاق فيَسهُل تروضيهم.
(سحَّال أبو الطبق).هي خرافةٌ منتشرةٌ في شَرقِ سوْرية حيثُ يُقال: شكلهُ كالقطّ، ولهُ مَخالِب، يخرجُ في الّليلِ ليفترِسَ البَشرْ.

آرام:

_نعم كما قالَ عزرا،
فهذهِ التّرهاتِ وخُرافات العالَمِ السُّفليّ، تمّ تعزيزها منْ قِبَلِ حكوماتنا، كيْ نبقى خائفين من العالم السفلي يا أصدقاء ، فعالمنا السّفليّ مليء بالذّهبِ الأصفرِ، والأسود ("النفط")!
وبعدَ كلِّ هذا الحديثِ التّنمويّ، والذي يَصلحُ كرسالةِ دكتوراه في جامعةِ هارفرد.

يضيفُ قائلاً:

_ دعونا الآن نرى الطّلاسمَ والرّسوماتِ الموجودةِ على المخطوطة، علّنا نجدُ حلاً للرّصدِ، ونُبْطلُ عملَ الجّن!
إنّ الإنسانَ مهّما بَلغَ مُستواهُ الفكريّ، يبقىَ متأثراً ببيئتهِ

الّتي نشأَ فيها، وكما أسلَفْتُ فأبطالنا أبناء الطبيعة مجبولونَ بالطّينِ وخُبزِ التّنور، مُنقّحوْنَ بالعفويّةِ، فإنْ رأوا فُتاتَ خبزٍ على الأرضِ قبّلوها وباركوا بها جباههم، ثُمّ وضعوها لطائرٍ، إنْ مرّ جائعاً وجدها ، وإن شاهدوا حذاءً مقلوباً، تطيّروا!

وإذا دخلت البيت فراشة ("أمّ البشير"). تفاءلوا!

مهما بلغَ مستواهُم العلّميّ.

تلكَ اللّيلةُ، كانتْ مُرعبِة، مرعِبة جداً كامرأة خارجة دونْ"ماكياج".

حيثُ كَسا الظّلامُ وجهَ السّماءِ، والتَهمَ الغَمامُ كلّ النّجوم.

نجمةٌ واحدةٌ فقطْ، بالكادِ يَراها النّاظرُ في صَدرِ السّماء!

لم تَكُنْ تلمعُ فحسبْ، بل كانتْ ترتجفُ خوفاً.

وما زادَ الرّعبَ بلّة! هفهفةُ الرّياحِ، وزخاتِ المَطر التي كانتْ كخَريرِ قَطراتِ ماءٍ في كَهفٍ مَهجور!

ظلامٌ وغيثٌ وغمامٌ، ليلةٌ ساحرةٌ بجمالها، لكنّها مُريبةٌ

كحديقةٍ في مَقبرةٍ، لا يَمرُّها العاشِقون.

نامَ اللّيلُ وهمْ يقظونَ دونَ حِراكْ، كشواهدِ القُبور!

أمّا يوسُف، تَحسبهُ حِبراً أمامَ حائِطِ المبكى، كيف لهمْ أنْ يَناموا وفي عُقولِهم مدينةٌ مزدحمةٌ بالأوهام ؟

ومع ذلك مرّتْ تلكَ الليلة ثقيلة، كعروسٍ ماتَ بَعلُها عَشِيّةَ زِفافها، وكأنَّ الشّمسَ تأخّرتْ عنِ الدورانِ في المَجرّةِ الكَونيّةِ، و استَيقظتْ بِشقِّ الأنْفسِ.

***

مرّتْ الأيّامُ، ومرّ معها ضجيجُ صدى ذاكَ الخوف الذي أرّقَ هدوءَ أيّامهم، لِمَ لا، فطالَما كانَ الوقتُ كفيلاً بذلك.

جميعُ فلسَفاتِ العلمِ تؤكد، أنّ مَنبعَ الخَوفِ الأساسيّ

هو الموتْ!

إذْ أننا، لا نَهابُ فِكرة المَوتِ بحدِّ ذاتها، بلْ نَخافُ مِنَ المجهولِ الذي يَعقبُه، ما يُسمّى بالحياةَ البرزخيّة!

لوْ نظرنا بعينٍ ناضجةٍ، نراهُ أشبه بِدُعابةٍ، أو لُعبةٍ طُفوليّةٍ كالغميّضة مثلاً، إلّا أنَّ من يختبئ هنا، لا يعودُ أبداً.

إنَّ الموت ليسَ بتلكَ الجِدّيةِ التي نتصوّرها، فهُناكَ من اختنق بفتاتِ ضِحكةٍ، فماتَ فَرحاً!

يُذْكرْ أنّهُ بعدَ ما تجاوزَ آرامُ ورفاقهُ، صدمةَ تلكَ الحادِثة المُروِّعة، التي أصابتْ داوود، ومُجرياتها القاسية على الرّوحِ والجسد،

استعادوا لهفةَ وصولهم إلى مبتغاهم، مما جعلهمْ يقفونَ منْ جديد على أرجلهم، بقوة الشّمس التي لازالتْ تشرقُ كلَّ صباحٍ، مع آمالهم ومستقبلهم المنشود.

همَّ يوسُف قائلاً :

_اليومَ يا رفاق، سأتّصلُ بآدم الذي حدّثتكمْ عنه سابقاً، وأكلمهُ بمَوضوعِ المَخطوطةِ التي نَملكها.

ردّ الجميع :

_حسناً تفعلُ يا يوسف.

أضافَ يوسف :

_ما رأيكمْ الآن بالخروج ، لنرفّهَ عن أنفسنا قليلاً ، فقد ضقنا ذرعاً هنا!

هيا يا أصدقاء، فهناكَ منطقةٌ أسفلَ التّلةِ، اسمها (مال تبّه)."Maltep" جميلةٌ جداً، جُلُّ سُكّانها أغنياء، على عَكسِ(كُولسّيو)، فتلكَ البلدةُ فقيرةٌ وغيرُ مخدّمة.

منذ الأزل، شاءَ القدر أنْ يكونَ الفَقرُ والغِنى جيران!

(مال تبّه: أحدُ أحياءِ مدينةِ اسطنبول التركية، تقعُ في الجهةِ الآسيّويّة، بينَ قاضي كوي غرباً، وكارتل شرقاً، تطلُّ منَ الجنوبِ على بَحرِ مرمَرة).

وصلَ الرّفاقُ إلى الشاطئ، متنفّسين الصُّعداء، نافثِينَ عنهم أعباءَ الحياةِ القاسية، كلّ منهم يأخذهُ جمالُ البحرِ وسحره إلى عالمِهِ الخاص، فيَشدّهُ الصّمتُ والشّرودُ لبرهةٍ من الرّاحةِ والتأمل، فهذا يتذكّرُ صوتَ أمِّهِ، كبحّة ذاكَ السّكون الذي يتخلّله حنانُ الطّبيعة، وذاكَ كأنهُ يناجي ظلّ محبوبته المتواري وراء شمس كانون الخجولة، المستلقية على وجهِ الماء كحورية، والآخرُ يَحنُ إلى قسوةِ والدهِ فيشعرُ أنه يشبهُ الجبل كيفَ يرعى شامخاً طفولةَ الشّجرِ والزّهر والرّمل ووالدته السّماء، كلٌّ هامَ بذاته وغرقَ في أعماقِ الذكريات.

ثمّ جلسوا جميعاً يتسامرون بهدوء، حيثُ كانَ البحر في أوجِ غضبهِ، والأمواجُ كأنها خائفةٌ، تعانقُ بعضها البعض، وتمّسدُ على رأسِ الشاطئ.

يُقاطِع آرامُ خلوتهم قائلاً :

_ما أجمل البَحر!

لو كان الجوّ دافئاً، لسبحتُ على الفَور! كنتُ دائماً ما أسبحُ في نَهرِ الخابور، ولعلمكم السباحةُ في النّهر، أصعبُ بكثيرٍ منَ السَباحةِ في البحر.

يضيفُ عزرا :

_أما أنا يا شباب وأعوذ بالله من كلمة أنا،

يضحكُ متمتماً.

_أخافُ البحرَ، والنّهر، والبُحيرات.

وموجةٌ صغيرةٌ عابرة، كفيلةٌ بإغراقي.

يضحكُ سومر مقاطعاً الرجل :

_ألا تستحيْ أنْ تعترف بخوفك يا صاح!

يُكملُ ضحكته مردداً :

_خُذها مني نصيحةً يا عزرا

أي شيء تخافه، حاول أن تصْطدمَ بِهِ ، تتعايشَ معه، تواجههُ بكل ما أوتيتَ من جُبن؛ أعرفُ شخصاً كانَ يَخافُ من البِحار، غرقَ في عينيّ فتاةٍ شبهِ عابرة، فأصبحَ قبطاناً لا يهابُ الغرق!

الأشياءُ المرَعبةُ، لها لذّتها الخاصة، كحكاياتِ جدّاتِ الرّيفِ.

كما أنّ هناك شخصاً يخافُ من المرتفعات، إلى أنْ عَشِقَ، فوقع من شاهقِ قلبه إلى وادي أشواقه، وأصبحَ بعدها متسلّقاً على حبالِ الحنين والأنين!

هكذا هي الأمور المخيفة جميلة، لكن ليس دائماً كشابٍ يعاني من فوبيا الأماكن المغلقة، فتزوج!

هو الآن يخشى فكرةَ الحرية.

يضحكُ عزرا ساخراً :

_الله عليكَ يا سومر، ما هذه النصائح البَرّاقة!

وأنا أستمعُ لها وكلّي آذانٌ صاغيّة، كالأحمقِ تماماً.

فيَضحكُ الجميع.

_بعيداً عن المزاح يا رفاق.

يُحدِّثهم آرام قائلاً :

_أحياناً ندخلُ بعض المعارك، ونحنُ على يقينٍ تامٍ بأننا سوفَ نحتسي نخبَ الهزيمة، بلْ ندخلُ معاركَ خاسِرة، فقطْ لنِهزمَ خوفنا.

وأنتَ يا عزرا ، خُضْ معركتكَ مع البَحرِ، صدّقني بعدَ نهايةِ المعركة، ستكونان أصدقاء للأبد.

يردف يوسف مضيفاً :

_على هامشِ ما ذكرتم يا رفاق، بل وهو الصّلبُ والخاتمة!

علينا أن نخاف الله وحده، فهو الذي خلقنا، وخلقَ البحارَ والكواكبَ والجبال، وهو ربّ السمواتِ والأرضِ ومن فيهن.

سومر :ياصديقي الذين يعتقدون أن الله موجود فقط في السماء لايخافونه فهم يظنونه بعيدا.انظر إلى البحر ،إلى الموج ،إلى الغروب،على يمينك ويسارك ،ستجد الله في كل مكان،يخافون الله الذين يعتقدون بأنه أقرب إليهم من النبض.

أرخى اللّيل ستائره، بعدَ يومٍ حافلٍ بالمتعةِ والحكمةِ والمرحِ والخيال، وبعد استمتاع الأصدقاء بسحر الطبيعةِ وهدوئها.

و قبل أنْ يغادرَوا المكان، رنّ هاتفُ يوسف،

ردّ:

_آلو نعم...

أهلاً آدم. ثمّ تنحى جانباً، وراح يُحدّثهُ مُطوّلاً، أخبره عن المخطوطة التي معهم، طالباً منه العون.

عَلِمَ الجميع أنه آدم الذي يتكلم مع يوسف، وصاروا يَعدّون الدقائق بشغف، بانتظار إنهاء مكالمته، ليخبرهم بما جرى.

يوسف بعد بضع دقائق ينهي مكالمته قائلاً :

_استبشروا خيراً يا رفاق، أخبرتُ الرجل بالموضوع، فأعطاني رقم تاجرٍ تركيٍّ، وطلب مني أن أتواصل معه، فهو الذي سيعيننا في هذا الأمر.

ثم مضوا متفائلين بما هو قادم.

عاد الرّفاقُ إلى منزلهم مثقلينَ بالآمال، والغبطة تملأُ قلوبهم.

جلس الأصدقاء في صالةِ الجلوس، يتابعون أحد المسلسلات، ويبتسمون شاردين بأحداثه ومندمجين به، واحتكاك كاساتِ الشّاي يُقرقع فَرحاً بين أناملهم الباردة.

كان عزرا يتصفّح أحد المواقع الطبية على الإنترنت، أثار انتباهه فيديو يتحدث عن أعراضِ مرضٍ غريبٍ يُسمّى(داء الكَلب).

يسببِ انهيارَاً بالجملةِ العصبيّة، يعاني من يُصابُ به من فوبيا" الماء والهواء"، فيمرُّ أمامه شريط ما جرى لداوود بسرعةٍ رهيبة جعلتهُ يشهقُ واضعاً يديه على وجهه من هَولِ ما رأى وسمع!.

صَرخ عزرا مُشتّتاً هدوءَ الجميع :

_يا رباه أتعلمون ما الذي أصاب داوود وأودى بحياته أتعلمون!!!

ينشدُّ رفاقه مندهشين قائلين بنبرة جمعت صدمتهم :

_ما بك يا عزرا! ما الذي دهاك يا رجل!

_اصمتوا واسمعوني الآن لقد مات داوود (بداء الكَلب)، إنها ذات الأعراض التي جرتْ معه في تلكَ الّليلةِ المشؤومة.

قاطعهُ يوسف :

_عن ماذا تتحدث يا عزرا! أرجوكَ وضّح لنا الأمر.

عزرا :

_نعم حَسناً.....

منذُ قليل شاهدتُ فيديو عن مرضٍ أعراضه تشابه تلك التي حلّتْ بداوود، أكادُ أجنّ يا رفاق، كيفَ للأطبّاء أن يعجزوا عن تشخيص مثل هذا المرض، كيفَ لهم ذلك!

يضيفُ عزرا :

ـ يوسف ، لِمَ لا تتصلُ بأهلهِ وتسألُهُم إنْ كانَ داوود قد تعرض لعضة كلبٍ قبلَ مجيئه إلينا.

ردّ سريعاً:

ـوهو كذلكَ يا صديقي سأتّصل بهم فوراً.

اتّصلَ يوسُف بعائلةِ داوود.

أولئك البُسطاء، الذين أرسلوهُ لينشلهم من فَقرهم لكنهَ حملَ لهم الحُزن والآلامَ والحسرة، بدلَ ذلك.

قالوا له أنّ ابنهم قبل عبوره الحدود متّجهاً إلى تركيا بعشرةِ أيامٍ تقريباً، عضّه كلبٌ برّيٌّ مسعور، فذهب إلى المستوصف حيث عالجوهُ بالإسعافاتِ الأوليّة فقط لا غير ، (ضِماد، وخافض حرارة ومسكن للآلام)، غيرَ آبهينَ لخطورةِ ما أصابَه ، يبدو أنّ الأمر كانَ يحتاج لعنايةٍ إلهيّة حتى يَنجو من تلكَ العضّة المميْتة.

في الحربِ حتّى الكلابُ تُصابُ بالسّعار، فالذي لم تَعضّهُ كلابُ الوطن؛ عضّه الفقرُ والجوع والموت!

يبْدي سومر أيضاً حيرته قائلاً :

_ما هذا الطبّ الذي درسهُ هؤلاء الأغبياء، وكيفَ يَخفى عنهم هذا!

ردّ يوسف :

_نعم يا سومر ، هذهِ عَيّنة من كوكَبةٍ ممّنْ يُطلّقونَ على أنفسهمْ لقبَ" طبيب.

أتَذكرْ يا عزرا!

ذلكَ الطّبيبُ عندما كنّا في المَشفى كيفَ كانَ يبحثُ في "Google"ليُشخّصَ حالةِ داوود! ثُمّ قالَ أنّ السبب هو "المخدرات" كالمثلِ الذي يقول :

((وبعدَ جهدٍ جهيد، فسّرَ الماءَ بالماءِ)).

ذلكَ الطّبيبُ التّركيّ تماماً كَطُغاتِنا، الذينَ يَرمونَ كلّ الخَرابِ والمصائبِ والحروب، على إسرائيل والإمبرّيالية.

سومر :

_باللهِ عليكَ، أتتكلّمُ جاداً!

لا لا بالطّبع أنتَ تمزح،"Google" لا يوصلُ فكرةً ولا يُفَسّرُ شعوراً.

هلْ جرّبتَ أنْ تُترجمَ نصاً! ثمّ وجدت أنّهُ بلا ملامح،
أو فكرته أصبحتْ بلا روح.؟
هكذا يَحدُث عندما تُريدُ أنْ تَشرحَ مشاعِركَ للآخرين!
يتنهدُ عزرا متمتاً :
_قديماً كانَ الطّبيبُ صديقَ المريض، أما الآن! فالطَّبيب صديقُ المالِ فقطْ.
يُقالُ أنّ ابن سينا، يُبخِّرُ "بَولَ" المريضِ ثمّ يتذوّقه فيعرفُ إنْ كانَ
المريضُ مُصاباً بداءِ السّكري.
لا علينا فتلكَ عصورٌ قدْ ولّتْ، عندما كانَ الطّبيبُ إنساناً
وليسَ صاحبَ "بسطة".
آرام:
_إنّ الطّبيبَ يعالجُ المَرَضَ لا المريض، لذلكَ يَلجأُ أغلبُ المرضى لعلاجِ
حَبيباتِهم!
يختمُ الحديثَ كعادتهِ بحكمةِ شاعر.
بابتسامةٍ ساخرةٍ عزرا يُخاطب يوسف قائلاً :
_أَرأَيتَ!
ليسَ هناك جنٌ ولا أرواح، بل أطباء أغبياء سُذّج، جعلونا نصدّق كلّ
تلك التُرّهات والخزعبلات، واعتقاداتهم كلها عارِية عن الصّحة.

ذاكَ الطّبيبُ التّركيّ، خَجلَ أنْ يقولَ أنّ الجنّ منْ تسببت بهذيانه وموته ، فألقى اللّومَ على المخدّرات، هو يشبهُ أولئكَ الشيوخَ الصّوفيين في منطقتنا، إذْ إنهم يعالجونَ حتى مريض البواسير بالحُجبِ والشّعوذة.

يُشيرُ يوسف إلى آرام مخاطباً إياه :

_كنتَ أكثرنا خوفاً يا آرام، والآن قد عادتِ الضّحكةُ تعانق تجاعيدَ وجهك، أَتَظن أنّني لمْ أكنْ أراكَ وأَنتَ ترتجف خوفاً!

ثمّ من أخبركَ بعدم وجود الأرواح! ألا تؤمن بوجودها!

يهمُّ آرام بإجابتهِ، يقاطعهُ سومر قائلاً:

_نحن نؤمنُ بالروح، ولكنّنا لا نؤمن بأحاديث الجنّ، فالرّوح هي الوعي الباطِن الذي لا نراه، بل أعتقدُ أنّ القشعريرةَ الّتي تُصيبنا في لَحَظاتِ السّعادةِ أو اختلاجات الرُّعب، ما هي إلا صريرُ باب الروح.

يردفُ سومر:

_نعم يا رفاق إنّ لذةَ القَشعريرة التي تعترينا تشبه حَكّة جُرْحٍ قدْ شارفَ على الشّفاء.

هي ارتعاشات ما بينَ إحساسِ اللّذةِ وآلامِ الوجع.

يقول آرام :

_عندما يتصارع العقلُ مع القلب تُصابُ الروحُ بالصّداع.

يرد عزرا مضيفاً :

_في معاركِ القلبِ والعقلِ يتكبّدُ الجسدُ خسائرَ فادحة.

_ أذْكرُ أولَ مرةٍ لمحتُ ميديا، لفتتْ انتباهَ العين واستدارتْ لها الرّوح، ثُمّ شقّ قلبي طريقهُ سَيراً على النّبضات.

هكذا همسَ آرامُ حالماً.

_ دعكَ من أحلامِ اليقظة والحبّ يا رجل.

قاطع عزرا سردةَ آرام عن محبوبته، وعشقه لها قائلاً :

_تراها الآن لا تذكر اسمك وقد أَحبّت رجلاً آخر، وأنتَ هنا لا تفتأُ تتغزّل بذكراها ، فكما قال الفاشي موسوليني" الشعب كالنساء يذهبنَّ مع الرجل الفائز "

يُتبعُ كلامه بضحكاتٍ عالية!

_يبدو أنّه متحمس لمتابعة خطّتهم بشأن المخطوطة.

ينادي يوسف قائلاً :

_ما بكَ يا صديقي! ماذا تنتظر لتُراسلَ ذلكَ التّاجر الذي دلّكَ عليه صديقك "آدم"؟

يوسف :

_لا عليكَ، سأتواصلُ معهُ الآن على"الواتس أب" ...

كما تعلمون! هذا البرنامج لهُ خصوصيّةٌ وحماية ، هكذا نتأكد بأننا نعملُ بشكلٍ آمن، أَضِفْ إلى ذلك: سنتمكن من إرسال فيديو للمخطوطة تظهرُ فيها كلّ الصفحاتِ واضحة.

يتَدخلُ آرام قائلاً :

_أقترحُ عليكم أن يتمّ الإرسالُ من رقمٍ سوريّ مُثبَّت كيْ لا تتمّ مراقبته منَ قِبلِ الأمن التّركي.

يوسف :

_كوني أُتقنُ اللغةَ التركيّةَ وقد كنتُ أعمل في إحدى الشّركات التركيّة لفترة لابأسَ بها، حتى اضطُررتُ للغياب بسببكم، فقام المدير بطردي يضيف ضاحكاً.

ثمّ يتابعُ:

_المهم سأتكلم معه الآن.

بدا عزرا مُرتبِكاً بعد حديثِ يوسُف مع الرّجل، فهو أيضاً على دِرايةٍ باللغة التركية ويستطيع فَهمَ الكلام.

بعد أنْ أنهى يوسف مكالمته

سألهُ متوتراً:

_ها على ماذا اتفقتما ؟.

يوسُف:

_قلتُ له بأنّي سأرسلُ إليه فيديو لِلمخطوْطَة من رقمٍ سوريّ.

صمتَ شارداً لبرهةٍ ثُمَّ أضاف:

_أنا لَستُ مرتاحاً لحديثه البتّة، يبدو أنّهُ رجل (استخباراتٍ! أو مافيا)!

فمثل هؤلاء عادةً، ينتسبون لتلكَ المجموعات.

أرى أنّنا سَنغامِرُ يا رفاق وعلينا الحذر.

يعلو صوتُ سومر فجأة وكأنهُ تَذَكر للتّو شيئاً مهماً :

_أوه نسيتُ إخباركم، اليوم وأنا أتسوقُ بعضَ المستلزمات سمعتُ كلماتٍ عنصريةٍ من أحدهم مَفادُها أنهُ يَجبُ ترحيلُ السّوريين إلى بلادهم، لمْ آبه لتلك العبارات، فمن المتوقع سماعها على ما أظن.

آرام:

_نعم يا صديقي إنه أمرٌ طبيعيّ ففي كلّ دولِ العالم، يوجد يمين مُتطرفٌ وهناك يساريّ أيضاً ، فلولا اليمين لما وُجِدَ اليَسار! هكذا هي الأشياء، تتشكّلُ منْ نَقيْضها.

بما معناه كلّما رأيتَ شخصاً يكرهُ السّوريين، ستَجدُ هناكَ منْ يُحبهم.

يوسف:

_أيعتقد هذا التّركيّ أننا جئنا إليهم سائحين!

فلولا الحربُ اللّعينةُ لَمَا تَركنا ترابَ الوطن، وصدّقني لو زارَ سورية يوماً واحداً لهربَ منها فزِعاً.

يوسف يردِف ضاحكاً:

_الحقّ يُقال يا رفيقي، إنّ الأتراكَ قاموا بواجبهم واستقبلوا ملايينَ السّوريين، دَعْ ذلكَ الرّجل وكلامه الآن،

ولنفكّر بالكنز النّادرِ الذي بحوزتنا، فتلكَ المخطوطة سَتغيّرُ أحلامنا، وتُبدّل أحوالنا.

حتّى اللونُ الأسود على بَشرة سُومر سيتغير.

تثير ضحكة يوسف السّاخرة غضبَ الرّجل.

يردّ قائلاً:

_ألا تدري أيّها العنصريّ، أنّ اللون الأسودَ، يمتصُّ جميع الأشعّة السّاقطةِ عليه دونَ أنْ يعكسَ أيّ جزءٍ منها!

أيْ أنّه من يَجعل الألوانَ الأخرى تبدو أكثرَ إشراقاً.

يقول عزرا مشاركاً لهم :

_هل تعلمون أنّ أولئك السود أخذوا حرّيتهم بأيديهم، وبنوا أمريكا، ومنهم الأطباء والمهندسون والوزراء.

بينما نحنُ في الشرق، يفوحُ منْ عُقولنا نتنُ القوميّة والعُنصريّة.

يضيف آرام :

_ليسَ منَ الضّرورةِ أنْ تكونَ أسوداً لتكونَ عبداً!

فالسّواد أصلُ الوجود، أمّا بقيّة الألوانِ، فهي مجرد انعكاسات لا أكثر، السّواد طفرةٌ

أمّا العبودية حالةٌ مُكتسبة،

فهناكَ عبيدٌ للمال وعبيدٌ للطغاة، وربما عبيدٌ للنساء. يمكنْ أنْ تكونَ عبداً وأنتَ أشقر.

يقاطعهُ الشّبابُ ضاحكين :

_كما عهدناك تفسّر كلّ موضوعٍ بطريقتكَ المنطقية.

ذهب الرفاق للنّوم بعدَ سهرةٍ ممتعةٍ ضاحكة، والأحلامُ تسبقهم صاعدةً سلالمَ السّماء معلقةً أنظارها بالنجوم، هل تتحوّل يوماً ما إلى حقيقةٍ بين أيديهم لتنتهي كل مخاوفهم وآلامهم ؟

أما آرام! بقي مستيقظاً، لقدْ زاره الحنينُ ففرّ النّومُ مُغادراً أجفانه، فالحنينُ ثقيل.

مع أرقِ عينيهِ وشرودِ الّليل فيهما، يُضمّدُ آرام جرحَ حنينهِ النّازف بتفاصيلِ ملامحها الحادّة، يكوي شوقه بصورتها المحروقة في ألبوم ذاكرته، يَربِتُ على

أكتافِ الصّبر المخلوعة، ويَستحمُ بالدّموع، ثم يتوسّدُ عطرها العالق في أنفِ ذاكرتهِ، مستحضراً أولَ رسالةِ حبٍ حملها لهُ قلبها على حين لوعة، تقول فيها :

أيّها المتسَلّل إلى جيدِ القلب كيفَ أحكمتَ قبضةَ عشقكَ عليه!

حتى تسربل طيفكَ في أوردة الروح، تاركاً في دمي جرعةَ جنون وإدمانٍ خبيثة، غيرَ آبهٍ لآثار عبقِ الشام المزروعة في تفاصيل فؤادي، سارقاً من جسدي مواطن الشعور إلا بكِ

وارباً عني وجه الحبِ! تَملّكتني يا رجلاً كلّما سرتُ على خَلجاتِ حروفه تعبّدتْ أناملي في محرابِ عشقي له،

شاهدة وموحدةً باسم الله الذي جعلَ من الروح روحاً أخرى.

ثمّ يخلد مع نحيبَ مؤلم يعتريه.كانتْ ليلةً على شرفِ الغربةِ، متخمةً بوجبةِ ذكريات دَسِمة وأقداح أتراحٍ مُسكرة، تهتزُّ لها خاصرةُ الوجعِ وتتمايلُ كجاريةٍ سبيّةٍ، أطرَبها الحنينُ حدّ الانتشاء.

يسودُ الوجومُ ليجثمَ الصّمتُ على صدرِ الكلام.

تتحشرج الآه عند تقاطع الغصّة بشهقتين، فتتقيّأ العيونُ الدموعَ! والفرحةُ تلوي بِشدقها.

يعود على أدراج حلمهِ مكللاً بالآهات و الغصات ،

تلك الغصّة عامتْ بالحزنِ وأخرجتهُ من قَعرِ القهرِ
فقصمتْ ظهرَ الفرح.
ينظرُ إلى أصدقائه وهم نيامٌ، يتمتم بهدوء خفيّ:
_صوتُ شخيرهم هذا أشبه بكلمة"طز"، ينامون دون حنين يُذكر،
ويُطبقونَ أجفانهم دون أن ينتبهوا لذلك.
تاركين ذلك الشخيرَ لنا عن طيب خاطر...
الذينَ لا يشعرون ،
لا يشتاقون، لا يبكون، ولا ينتظرون!
هم كالآلةِ بل هم أضلُّ سبيلاً.
تراهم قد أصبحتْ قلوبهم كالزّائدة الدّودية، وأرواحهم كبرّاداتِ الموتى،
تبلّدتْ مشاعرهمْ، وغزتْ جيوشُ الصّقيعِ عواطفهم، وإذا خاطبهم
السّاهرونَ قالوا سلاماً.
أولئك الزّومبي. هم ليسوا أحياءً بل أكلَ عليهم الموتُ وشرب.
يبدأ الفجر بالانبلاج، و آرام بالنّعاس ينامُ.وتنامُ معهُ ملامح ميديا على
وسادةٍ مكتظة بالدموع.
بعد ليلة حافلةٍ قضاها آرام مُسافراً في يَخِتِ ذكرياته لحبيبته ميديا، رافقَ
أحلامهُ نومٌ عميقٌ سَرق من الشّمس أول

محطات الصّباح، ليَطولَ بهِ الليلُ، مقدارَ حُلِم آخر.

استيقظَ رفاقه مع أمنياتٍ جديدةٍ، ربما تحملهم إلى واقعٍ أجمل.
أخذَ يوسفُ هاتفهُ، ليتصفّحَ بريده الوارد، كعادتهِ في كلّ صباح، فرأى رسالةً على" الواتس أب" من التّاجر الذي تواصل معهُ سابقاً بشأنِ المخطوطة، يقولُ فيها :
(الرّجاء أن تُرسِل إليَّ، فيديو للقطعة، وبجانبها قطعةُ نقودٍ تركية، بقيمةِ الخمسِ ليراتٍ، وأن تجلب قطعة النقود هذه معك).
استغربَ طلبهُ هذا، ونادى أصدقاءه يخبرهم بما جاءهُ
سائلاً إياهم :
_وما الذي يقصدُه من طلبِ الفيديو مُرفقاً بما ذكر!
يَردُّ عزرا :
_ربما ليتأكّد بأنّ الفيديو تمّ تصويره في تلكَ اللحظة ، ورقم تلك العملة هو نفسه!
_نعم يا عزرا صدقتْ، يا لهُ من ماكرٍ فَطِن، فلكل عملة نقدية رقم محدد!
وافق الرفاق على تلبيةِ طلبِ التّاجر، عدا آرام.

بعد أنْ تَمَّ إرسال الفيديو، اجتمعوا على مائدة الإفطار يتناولون طعامهم، ويتنبَؤون بالقادم، تارةً يأخذهم الحماس إلى سعادتهم المرتجاة، وتارةً يعيدهم إلى متاهات الخوف والقلق من المجهول.

في تلكَ الّلحظاتِ رنّ هاتفُ يوسُف أجابَ بلهفة وقلق!

كان التّاجر هو المُتَصل، لاحظَ باتصاله هذا أنّه كان متلهّفاً في طريقة كلامه، (خَمّن الرّفاق أن يكون السبب هو اطمئنانه عندما رأى الفيديو الذي اتضحت فيه تفاصيل كل شيء).

طلبَ من يوسف أن يزوره في منزلهم.

ارتاب لطلبهِ، واقترح عليه أن يكون اللقاء في مكان عام حدّد يوسُف المنطقة، وهي " كارتل".

منطقة كارتل(kartal) : إحدى بلديّات اسطنبول تقع في القسمِ الآسيوي منها، على ساحلِ بحر مرمرة، بين منطقة مال تبة وبيندیك.)

بعد أن اتفقا على المكان والزّمان وحددا السّاعة أغلق يوسف هاتفه والتفّ حول رفاقه، شارحاً لهم مجريات الحديث كله.

حان الموعد، وذهب الجميع باتجاه المكان عزرا ويوسف سيتكفلان بمهمة اللقاء المباشر مع التّاجر، بينما آرام وسومر، سيراقبان عن بعد.

السّاعة الآن الرابعةُ عصراً!

تحتَ جسر كارتر.

عزرا ويوسف بانتظار التّاجر!

آرام وسومر يقفان على مقربةٍ منهما، متواريين عن أنظار التّاجر.

يهمس عزرا متمتماً :

_هيي يوسف أظنه هو ذاك الرجل الذي يتجه نحونا، انظر هناك.

يقترب بخطىً ثابتة وكأنه أيضاً قد استدلّ عليهم.

كانَ ذا بشرةٍ بيضاء، ملامِحُهُ ليست كالأتراك، عمرهُ يتجاوز الأربعين، لا يوحي شكله بأنّه تاجر.

اجتمع بهم في مقهىً قريب، في ذاتِ المنطقة.

التاجر اختصر السّلام والكلام موجهاً أسئلته بطريقةٍ غريبة مباشرة، وكأنّه اعتادَ على نبرته تلك كالتحقيق مع متهمين أو ما شابه ذلك!

_أين وجدتم المخطوطة! وكيف جئتم بها إلى هنا؟

قاطعهُ عزرا محاولاً مجاراتهُ في الأسلوبِ، بذاتِ الحدةِ والقوّة التي تحدّث معهم بها، وتولّى يوسُف التّرجمة باللغةِ التّركية للرجل :

_نحنُ هنا لنبيعَ هذه المخطوطة ولسنا في فرع أمنيّ لتحقق معنا بلهجتك تلك!...

يَعدِلُ التّاجر جلستهُ معتذراً ، ويُردفُ قائلاً :

_ شاهدت الفيديو ليلةَ أمسْ، وعرفت أنّ هذه المخطوطةَ بابلية ، ولكنّها خُطَّتْ قَبل السّبي البابليّ لليهود.

وربما يكون لها علاقة تربط بين المعتقدات اليهودية والدين البابلي القديم، لذا أعتقد أنها بالغةُ الأهميّة عند اليهود.

يستفسرُ عزرا جملته الأخيرة بتخوّفٍ:

_وما دَخلُ اليهود بهذا!

يتدّخلُ يوسف بلهجةٍ حازمة قائلاً :

_إن كنتَ لا تريدُ شراءها، فلا تستخدم معنا هذهِ الحيل والأكاذيب.

لا يَهمّنا تخصُّ منْ!

المهم كم تدفع ثمنها!

التاجر:

_حسناً هوِّن عليكَ يا رجل، هذه المخطوطة سعرها بحدود250 ألف دولار.

دون تفكيرٍ يقولُ عزرا مُتسرّعاً:

_ونحنُ نبيعها بـ500 ألف دولار ما رأيك ؟

التاجر ودون أيّ تردّدٍ:

_نعم أنا موافق..

أثارت موافقته السّريعة ريبةَ(عزرا ويوسف)، وكانَ لابدّ لهما من أن يتبينا صدق نواياهُ معهما.

ختمَ التّاجر اللقاء قائلاً :

_بعد يومين سأقوم بتأمين المبلغ المتفق عليه وأوافيكم لنكمل عملية البيع ...

يستأذن مغادراً المقهى.

خرجا بعد دقائق مغادرين أيضاً، أخذا آرام وسومر واستقلوا سيارة أجرة متجهين إلى منزلهم.

شعرَ آرام وكأنّ أحداً ما يتبعهم، لاحظ سيارة أخرى تسير في نفس طريقهم منذ غادروا ذاك المكان!

ضحكَ الرفاق مبرّرين كلامهُ على أنّه وهمٌ تملّكهُ جرّاء خوفه قائلين بصوت واحد:

_أبعد أوهامك الآن يا رجلْ!

عندما وصلوا إلى البيت، قامَ يوسف بطمرِ تلك المخطوطة تحتَ بلاطةٍ في أرض إحدى الغرف ، إذ لابدّ الآن من أخذ الحيطةِ والحذر فالأمورُ باتت في طَور الخطورة.

في ذاتِ الليلة، جلس الرّفاق معاً يتبادلون أطرافَ الحديث

بعد عودتهم، وقد أنهكَ ذاك الحُلُمُ أرواحهم، خوفاً، أملاً، حياةً، وقد يكون دماراً!

ربما هي آخر ليلةٍ تجمعهم معاً!

يقولُ عزرا متشائماً، مُحبَطاً :

_لستُ مُطمئنّاً للتّاجرِ يا رفاق لا سيّما عندما تطرّقَ في حديثهِ إلى علاقةِ اليهود بالمخطوطة!

_اليهودُ!! همْ بشرٌ مِثلُنا يا عزرا، لكنّ كلابَ الموساد هم منْ أساؤوا لليهود.

يقولُ آرام مقاطعاً يوسف في كلامه لعزرا :

_لا تظلم الكلاب يا رجلْ همْ حيواناتٌ وفيّة، لا يخونونَ النّاسَ الذينَ يعيشون معهم، ولو ماتوا جوعاً.

الكلب عنده عزّة نفسٍ(إن أصابهُ جرحٌ، توارى بعيداً عن الأنظار، ليلهثَ على جرحهِ بنفسه).

كما ذكرت "آجاثا كريستي".

الكلب يستعين به الأعمى لمعرفة الطّريق، ويستأنسُ بهِ الخائفُ والملهوف ، يستخدمه رجالُ الأمن للكشفِ عن المجرمين واللّصوص ، ويُستعانُ به

أيضاً في البحوثِ العلميّة، (فالكلبة ابنة الكلب)"لايكا ".أولُ كلبةٍ سوفييتيّة صعدَتْ إلى الفضاء.

و الكلب "قطيمر" أولُ كلبٍ هاجرَ من سَطوةِ (الزمكان) في قِصّةِ أهلِ الكهف وأدلى لنظريّة الزمكان قبلَ" إنشتاين ".

الكلب لا يقتلُ كلباً مثلهُ، فهم ليس لهم انتماءات وأحزاب، ليس فيهم يمينيّ ويساريّ وماركسيّ وشيوعي ، الكلب لا يقدّس قائداً، ولا يستغلّ وجعَ كلبٍ آخر، فهل سمعتَ ابن كلب ينبحُ بسبعِ لغاتٍ! وتستخدمه أكثرُ من أجندة!

حتى إنهُ ليس راديكالياً، ليسَ ديموغلوجياً، الكلب وفيٌ لوطنه!

عزرا يقاطعه قائلاً :

_لا تنسى عضّةَ الكلب التي أودتْ بحياةِ داوود..

يردُ آرام :

_لا ذنبَ للكلب يا صديقي ، إنّ الشّر صنيعة البشرِ فيه.

أنهى حديثه قائلاً:

_سننام الآن، تُصْبحونَ على واقع وحياةٍ أجملْ.

في اليوم التّالي، وكأيّ يومٍ آخر في روزنامةِ الأيام.

***

أحلام عقيمة

خرجَ آرام وعزرا إلى السّوق لإحضارِ بعضِ المسْتلزمات والحاجيّات، بينما سومر ويوسُف في المنزل بانتظارهما وقد طالَ بهما الوقتُ خارجاً، فبعد شراء المستلزمات ذهبا إلى الحلاق، كان شكلُ آرام يثيرُ الشّبهة وقد نبهَهُ عزرا إلى ذلك.

عادا إلى المنزل قبلَ أنْ تنعسَ الشّمس، وتودّعَ أحلامها على جباهِ المتعبين.

أثارَ بابُ المنزل استغرابَهما، دُهِشا للحالةِ الغريبة التي وجداه عليها، كانَ مفتوحاً على مِصراعيه، وحالةٌ من العبثِ تثير الرعب، وتقلق الفكر.

دخلَ آرامُ أولاً، ثمّ تَبِعهُ عزرا، بدا الخوف والرّجفةُ والارتباك عليهما! وفي لحظةٍ توقفَ الدّم في عروقهما،

حينما شاهدا سيلاً من الدّماءِ على الأرض، تملأ الجدران والأثاث ، ثم.

سومر ويوسف غرقى بدمائهما، جثثٌ بأطرافٍ مقطوعة، قد تمّ التّمثيلُ بها ، وقدْ جَثمَ الموتُ بجبروتهِ على ملامحهما التي كانت تضجُّ بالحياة، مجزرةٌ شنيعةٌ، تَربّصتْ بهم على أيدي مُجرمي الإنسانيّة والإنسان.

من الصّعبِ أنْ تَصلَ مكاناً اعتدتَ أن تسمعَ فيه ضحكات من رافقوا أحلامك وآلامك، وأوجاعك، وترى للحياةِ في عيونهم معنىً آخر، فتجد كابوس الموت والإجرامِ قد خطفَ كلّ نبضٍ وجودهم. ولازالت صدى أصواتهم تمرُّ في مسامعك تاركةً لكَ آلاماً تأبى أن تغادرَ روحك يوماً.

كانَ المشهدُ أكبرَ مِن أنْ تصِفهُ بِضعُ كلماتٍ عابرة.

عويلُ الّليلِ الآن ينعيهم.

أَبتلكَ البساطةِ، يقرر أحد أنْ ينتزعَ حياةَ الآخرين!

لِمَ لا!

الموتُ لعبةُ الكبارِ، والّلعبة في زمنِ الوهمِ حقيقة!

والحقيقةُ عار!

بعد برهة من الصّدمةِ والحزنِ العارمِ الّذي تملَّكَ آرام وعزرا.

استفاقا من غيبوبة الدّهشة والألم، ليجدا نفسهما أمامَ مصيبةٍ لا يعلمان كيفَ لهُما الخروج منها، أو التّعامل معها.

كانا كمن أسكره الوَجعُ، فارتطمَ بألفِ جدار، ليصحو فجأةً على نزف انكسار رأسه!!

يتحدّث عزرا لرفيقه بلهجةٍ يعتريها اليأس وخيبة الأمل :

_إنّه التّاجر الحقير، هو من ارتكبَ جريمته تلك بحق أصدقائنا يا آرام.نعم هوَ شعرتُ منذ رأيته بشيءٍ يشبه الانتقام يتطايرُ من عينيهِ الحاقدتين.

يضربُ يديهِ بأرضِ الغرفة مُلطِّخاً خيبته بالدّماء

مردّداً :

_تباً لكَ أيّها المجرمُ الوضيع، تباً لك.

يرُدُّ بنفس ألمِهِ منكسِراً آرام :

_ بالتّأكيد هو وعصابته منْ قاموا بهذا، اقتحموا المنزل في غيابنا، باحثينَ عن المخطوطة، عندما لم يجدوها، انتقموا منهما فقتلوهما ونكّلوا بهما.

أولئكَ القتلة لعنهم الله.

_والآن يا عزرا ما العمل ؟ أينَ سندفن الجثث، وكيف ؟

_لنْ نستطيع فِعل أيِّ شيءٍ يا آرام، أنتَ تعلم إن عَلِمَ أحدٌ بما جرى وخصوصاً الشرطة، لنْ ننجوا نحنُ أيضاً.

_والحلُّ إذاً!

يا رباه أَعنّا ما هذه الورطة التي نزلتْ بنا!

يردفُ عزرا والآهات تسبق صوته :

_أمامنا حلٌّ واحدٌ يا صديقي ، علينا أن نواجهَ هذه الكارثةَ بقوةٍ كبيرة وسُرعةٍ أكبر، أي يجبُ أن نُنهي كلّ شيء غداً، وإلا سياتي ذاك القاتل مرةً أخرى ليقتلنا نحنُ أيضاً، بعد أن يستولي على المخطوطة، لأنه عَلِمَ بأهميتها، لنْ يتركها ولن يتركنا أيضاً على قيد الحياة.

لذلك، سنقضي ليلتنا هذه هنا مع الموت الذي يُحيط بنا،

مع الرعب والعذاب، مع أشلاء أرواحنا التي تنتحب حزناً على جثامين من دفعوا ثمن أحلامنا، وقُتِلوا قرباناً للحقيقة النائمة.

يقاطعه آرام :

_كيف علينا أن نفعل هذا كيف يا عزرا! أنت تُحمّلنا مالا طاقة لنا به!

يردفُ عزرا مستجمعاً قواه:

_هذا ليسَ وقت المشاعر والخوفُ يا رفيقي، إمّا أن ننجوا أو ننتظر مصيرنا المحتوم تماماً كالذي نراهُ الآن أمامنا.

عليك أن تصحو يا آرام، لن أعيد كلامي وإن غداً لناظره قريب.

آرام بنبرة منخفضةٍ حزينة:_وماذا بعد يا عزرا!

ردّ قائلاً :

_نسافر غداً إلى أزمير، ثُمّ إلى اليونان.

آرام :

_سأطلبُ من عائلتي بيعَ الأغنام

ليرسلوا لنا ثمنها إلى أزمير

صحيحٌ أنّها كلّ ما يملكون، لكن لابأس!

_حسناً يا صديقي وفيما بعد سأتولى أنا تأمين المال أيضاً.

يتمتم عزرا مرتجفاً :

_هذا ما علينا فعله، سنترك الجثثَ ونلوذ بأرواحنا ،
وبما أنّ الطّقسَ باردٌ، فلنْ تصلَ رائحة الجثث لأيامٍ وعندها سنكون قد وصلنا أوروبا، (يا لنا من قساةٍ مجرمين).
قال ذلك، ثمّ انفجر باكياً يتساقط دمعه على أنقاض الحياة المتناثرة ببشاعة لون الدم ورائحته العفِنَة.

بعدَ منتصفِ الّليل، طغى ذاك الشعور الغريب عليهم، فعادةً نحن لا نخاف الموتى الذين نعرفهم، حتى في الموت نخاف جثثَ الغُرباء.
هم لمْ يكونوا خائفينَ من الجثثِ، إلاّ أنّ رهبةَ الموتِ التي استباحتْ حرمتهُ الأيادي الآثمة، تثير اشمئزاز الروح، هنا تشعر كم يشوه الانتظار الزّمن فهوَ مشوَّه، والحقائق مصبوغةٌ بالدماء.
إن أردت المضيّ وراء حلمكَ عليك السّعي وأنت بكامل دمائك المهدورة على جسدك.
يغفو عزرا مستسلماً لتعبه، بجانب جثث رفاقه
يطفوا على بركة الدماء.
آرام يجلسُ مرتجفاً بعينين شاخصتين دون حراك، غادرَ النّومُ جفنيه، فهول المنظر يجلبُ الأشباح ويشوّه سلامَ السريرة.

كان جسده متصلباً ويداه باردتين تلتفان على بعضهما ، شعر أنه في مشرحة تقشعر منها الأبدان.

يردُّدُ حاقناً روحه بكلمات، قد تمدُّه بالقوَّة والصّلابة :

_هكذا هي الحياة، الزمنُ ملوّثٌ والحقيقةُ مصبوغةٌ بالدّماء.

تمرّ تلكَ الّليلة كحشرجة آخر أنفاس الحياة في صدر مغادرٍ لها.

يملؤها الرّعبُ والخوف.

كشّرَ الصّباحُ عن ضوئه.

استيقظ عزرا ليجدَ آرام كما تركهُ جالساً على الأرضِ ومستنداً إلى الجدار، في حالة يُرثى لها.

يوسف وسومر، في نومهما الأبديّ.

يناديهِ عزرا :

_قمْ يا صديقي لنودِّع الجُثثَ فنحنُ سنسافرُ إلى حُلمنا في البحرِ، و ليكتبا هما الحلم على وجهَ السّماء، فطريقنا مختلفٌ وحلمُنا واحدٌ.

من يعلم يا صديقي ما الذي ينتظرنا! وماذا كُتبَ علينا، قد نَصلُ قبلهما إلى السّماء!

ردّ متألماً :

_كلّما ودّعتُ أحدهما أختنق، وتذرف عيناي الدموع ، بدأتُ أوقِنُ بأنّنا نتنفّسُ من أعيننا!

أوَتعلم يا عزرا يُردف آرام :

_لكي تعانقَ ميتاً يجبُ أنْ تجثو على حنينكَ وتطبع قبلةً على جبينِ الوداع.

غادرا أخيراً مُثقلينَ بدمعهما، وذكرياتهما، وبقايا أحلام. غادرا المكان، بالكثيرِ منَ الموتِ، حملاهُ بصورةِ رفقاهما الذينَ تَركاهما مُجبرينَ على غصةٍ تبتلعُهما قبلَ أن يبتلعاها،وصدى تلكَ الأيامِ تدهسُ قُواهما بعجلاتِ الظّلم والقهرِوالوداع.

في سيارةِ أجرة حَملا أمتعتُهما، والمخطوطة، وأجسادهما المرهقة.

في طريقهما إلى أزمير، زَفرا تنهيدةً أخذتْ معها ما مضى من كوارثَ وخيبات، وفتحا أعينهما بشيء من الأنانيّة لخطواتهما القادمة.

اقتحمَ صمتُهما وأنين الطّريق صوتُ رسالة جاءتْ لأحدهما.

أخرجَ آرام هاتفه متمتماً لعزرا :

_ إنها رسالةٌ من رقمِ سومر، يا إلهي! كيف تصل رسالة منه وهو ميت!

عزرا :

_ما بالك يا رجل! لقد فاتنا من هولِ الصّدمة أن نبحثَ عن هواتفهما.

_ لابدّ أنه التّاجر، أخذَ هاتفَ سومر ويوسف معه ليجد سبيلاً لمُلاحقتنا وتهديدنا.

ماذا كتبَ في رسالتهِ تلك ذاك القاتل المجرم يا آرام ؟

قال :

_(نريد المخطوطة سلِّمونا إياها، وإلا سنتلفُ أجسادكم)

عزرا :

_أغلقْ هاتفكَ سريعاً يا آرام ، وأنا أيضاً، كي لا يستطيعوا تحديدَ موقعنا.

_نعم نعم، وهو كذلك.

_ وعند وصولنا أزمير سنشتري شريحةً جديدةً، وليذهب أولئكَ الأوغاد إلى الجحيم.

كان الطّريق طويلاً، والعذاب والارتباكُ أطول، لمْ يُدهشهما سِحرُ تلكَ المناطق التي يمرّون بها ، فأعينهما لا تستسيغ جمالاً ولا يليق بها تذوّقه.

عيون الغرباء حكرٌ على الليل وظلامه ،عيونهما لا ترى سوى صور بَشعة تأبى مفارقةَ خيالهما.

مازال شريطُ الدّم والفاجعَة مطبوعاً كغِشاوة تمنعُ رؤية أيّ شيء عدا الموت.

استغرق السّفرُ حوالي سَبع ساعاتٍ متواصلة، كان للنوم الحصّة فيها، بلا حولٍ لهم ولا قوة، يسدلُ ستائره على أجسادهما ليستسلما منهكين في أحضانه الدافئة، كثيرةٌ هي الليالي التي لم يتذوّقا طعمَ النّوم فيها، فكانَ زائراً جميلاً عاود الإقامة بين جفونهما بعد غربةٍ طويلة.
على مشارفِ مدينة أزمير تنفّسا الصُّعداء، وابتسما للشمس القابعة في سماء أخرى.

(أزمير أهم المراكز السياحيّة، وثالث أكبرِ مدينةٍ في تركيا
تقعُ على سواحلِ بحر إيجة، يعودُ تاريخها للألفِ الثّالث قبلَ الميلاد، وقد عُرفتْ حينها باسم(سميرنا)
كما كانتْ المركز والموطن للعديدِ منَ الحضارات.)

وصلَ عزرا برفقةِ آرام إلى المركز الرئيسي للمدينةِ، يسمى بميدان كوناك (konak).
فمدينة أزمير أيضاً تَعجُّ بالّلاجِئين السّوريين الهاربين من شبحِ الحربِ، هم كذلك ينتظِرونَ الفُرصةَ المناسبة لتَحقيق حُلم الهجرةِ إلى أوروبا، حيث الاستقرار والحياة الكريمة!

ما أصعبَ أن تَستبدلَ وطنكَ بآخر، فقط لكي تعيش!

عزرا :

_الآن سنستأجرُ غرفةً في فندق رخيص لنقيم بها فترة إقامتنا هنا يا آرام.

_نعم وهو كذلك سنسعى ليكون كل شيء على ما يرام ،علينا أن نذهبَ بعدها لاستلامِ الحَوالةِ الماليّة، ثمّ البحث عن مهرب، ففي وضعنا الرّاهن يجبُ استغلالِ عامل الزّمن والسّعي بالعبورِ إلى اليونان في أقربِ فرصة.

دائماً ما بينَ الموتِ والحياةِ، عاملٌ زمنيٌّ بسيط.

في اليوم التالي.

خرج الرفيقان في الصباح الباكر باحثين عمّن يُساعدُهما في الهَرب إلى وِجهتهما التاليّة.

قابلا مهرّباً سوريّاً، يعمل على تهريب النّاس من أزمير إلى الجزر اليونانية، هي عادة المهرب، يجمع مبلغاً من النّاس البُسطاء ليهّربَ بعدهم.

دائماً المهرِّب شخصٌ متملِّق يَشرحُ لكَ عمليّة العبور كأنّكَ تعبرُ ساقية لا بحراً، و دائماً ما تَجد نقيض كلامه لحظةَ العبور.

لماذا لا يكذب ؟! فلقاؤكَ به لمرةٍ واحدةٍ فقط، إمّا أنْ تَصِلَ إلى قلبِ أوروبا، أو معدةِ إحدى أسماكِ القرش.

نهايةُ شهرِ كانون الثّاني، البَردُ القارس، والأمواج الغاضبة.

آرام وعزرا.

على سواحلِ أزمير قُبالةَ جزيرةِ متيلني اليونانيّة (Mytilene)ومعهم ستّونَ سورياً من ضمنهم عائلات وأطفال، عادةً يكونُ السّماسرة سوريين قبلَ الاتّجاه إلى السّاحل وما إن تصبح هناك، تجد الأتراك هم من يقومونَ بتجهيز القوارب لعمليّة التّهريب.

عزرا :

_هذا المهرِّب قدْ كَذبَ علينا يا آرام، قالَ أنّ عددَ المُهاجرين في"البلم" عشرونَ مهاجراً، والآن أرى أضعاف العدد! كيفَ لقاربٍ مطاطيّ أنْ يتّسعَ لهؤلاء المساكين الذينَ لم يَسعُهم وطنهم ؟

ثم يلتفتُ إلى المهرّبِ التّركيّ مخاطباً إيّاهُ باللّغة التّركية :

_هل سنعبُرَ بهذا القاربِ الذي عرضهُ مترٌ وطولهُ ثلاث أمتار؟ أنتم ترسلوننا إلى التَّهلكة!

تقدّمَّ المهرّب التّركيُّ نحوهُ و مسدّسه جاهز في يدهِ، ينظرُ إليهِ كذئبٍ لا يملكُ فريسته.قائلاً :

_إنْ تكلَّمتَ ببنت شفة مرّةً ثانية، ستكون جثّةً هامدةً.

يمسكُ آرام صديقهُ، والخوفُ قد تمكّن منه مُحدِّثاً إياه :

_هدئ من روعكَ يا صاحبي هذه المغامرة لابدّ منها فنحنُ ميّتون في جميعِ الأحوال، سنسلّم أرواحنا للبحرِ علَّه يكونُ رحيماً بنا، أكثرَ منَ البشر.

في اللّيل صعدَ الجميعُ إلى القاربِ، ولِسانُ حالهمْ يقول: وكأنه قاربُ الموت لا قارب النجاة، لكنْ لا بأس هذه المُغامرة لابدَّ منها، فإمّا حياة مُستقرَّة أو موتٌ أبديّ.

هذا البحرُ طاغية، سنذهبُ إليهِ بصدورٍ عارية، إمّا أنْ نُسقِطهُ أو يُسقطنا.

كانَ شعورُ الهلعِ يسيطرُ على ملامحَ الكِبارِ والصّغار، فالغرق مُحتَملٌ ومُتَوقعٌ أمامَ فُرصِ النّجاة الضئيلة جداً، هذا الواقع الّذي يواجهونَه الآن.

في عرضِ البحر، بدأ "البلم" بالتَّخبُّط فالأمواج كانت عاتية، ويَحمل من النّاس أضعافَ ما يحتمل بأعداد كبيرة لا تناسبه.

بدأ الصُّراخُ والرعبُ، وكأنّهم في يومِ الحشر، ومع تلكَ الصّيحاتِ تتسارع لغة الموت، صارَ القاربُ يترنّحُ ذات اليمين وذات الشمال وكأنه سكير ثمل قد احتسى نخب الموت الأخير.

يا الله! الأطفال يتساقطون، ضعفاءُ هم، لا يستطيعون المقاومة!

بكائهمْ وصراخهم، استغاثة أمهاتهم، منْ يسمعهُ! لا أحد الموجُ فقط يردُ صداه.

ما منْ مجيبٍ، ولا سميع، وحده اللهّ في عُلاهُ معهم.

يحاولون التّمسّكَ بأيّ شيء قد يُنقذهم، فاحتمالاتِ النّجاة نادرة.
ها هي أيديهم تلوّحُ، ورؤوسهم تعلوا وتنخفض.
يسبحُ آرام ولكنّه لا يرى شيئاً فقط يَسمعُ صُراخهمْ، فليلُ ذلك اليوم، كانون أسودٌ زنيم كالغراب.
يَنادي آرام بحنجرتهِ المتعبة:
_عزرا. صديقي. عزرا. أين أنت
هل تسمعني ؟
يردُّ بصوتٍ منخفض:
_اهرب بنفسكَ يا صديقي، أمّا أنا لعلّ هذا البَحرَ يجرفني إلى نهر الخَابور وأدفنُ هناك.
يصرخُ آرام والحزنُ يصرخ قبله :
_يا عزرا هذا بحرٌ أجنبيٌّ غير حنون لا يتعاملُ مع أنهارنا الأم، هذا بحرُ الإغريق الذي أغرقَ الحضارات
السّابقة، سيغرقنا حتماً.
عزرا:
_سأذهب لألتقي بيوسف وسومر في السّماء، أما أنتَ فاحتفظ بالمخطوطة التي علّقتها على خصركَ، فهي حُلمكَ.

وإنْ نجوتَ حقّق هدفكَ وتزوّج من ميديا، وسنكون نحنُ في العالم الآخر سعيدين معك.

تثور الأمواج بوتيرةٍ أقوى وكأنّ الأطفالَ كانوا مقبّلاتٍ وقد فتحوا شهيّةَ البحرِ، فبدأ بالتهامِ الكبارِ واحداً تلوَ الآخر.

تَهدأُ الصّرخات ولا يسمعُ إلا أصوات حشرجاتٍ وآهاتٍ وأناتْ.

_استرخِ يا عزرا. لا تقاومْ الموج في مواجهتك للبحر،استسلم لكيْ تعوم فالمقاومةُ هي الغرق.

يُحدِّثُه آرام من خلفِ الأمواج، ولكنَّ صوتَ الموتِ أقوى فما أصعبَ أنْ تُكلِّمَ شخصاً من وراءِ الموت

وبصوتٍ يملؤه الرعبُ ينادي آرام:

_عزرا

عزرا

عزررررررا.

كتمَ البحرُ أنفاسَ عزرا كما كل من كان معه في رحلة الموت.

اختلطت دموعُ آرام بمياه المحيط، وملح دموع الأمهات.

ظل عائماً وحدهُ يصرخُ ويبكي ولا أحد يجيبه.

بدأتْ زخات المطر تتساقط وكأن السّماء تنعي الغرقى بدموعها.

_ لماذا لا يستخرجون الملح من دموعنا ونحن الذين روينا بحار الحزن؟

يبقى آرام وحيداً يُصارعُ الأمواج.

في تلكَ اللّحظات، يَسّكنُه الألمُ والحسرةُ، لحظةُ الوحدةِ القاتلة! فهو في مياهٍ عميقةٍ باردة ، لا يعلمُ ماذا سيحلُ به، ينتابهُ القلقُ تارةً، والهلَعُ تارةً أخرى.

يمرُّ شريطُ الذّكرياتِ أمام ناظريهِ ذكرى تليها ذكرى،

بل ألمٌ يليه ألم!

تساؤلاتٌ، وتخبّطاتٌ كثيرة تجتاحهُ، لمْ يَجدْ سوى البُكاء عوناً لهُ يَسّليْ بهِ وحدتهُ في هذا السّوادِ القاتم، والغرقى يطوفونَ على سطحِ البَحرِ، وكأنّهم قرابينَ له.

يُتمتم آرام حزيناً :

_يقطنُ جوفي الألمُ، ولا رفيقَ في الطريق أينَ الرّفاق! لا أعلم لماذا أصدحُ بكلماتِ درويش الآن! وأشعرُ أنَّ روحي تصرخ بملء فيْها، أعيدوا ليّ الرّفاق. أعيدوا لي الرفاق. والدّمعُ في انهمار، والرّوحُ في حِدادٍ، والجسدُ متجمّدٌ على إيقاعِ لحنٍ صاخب للبحرِ الهائج.

يسترخي آرام، وتُحرّكهُ الأمواجُ ذاتَ اليمين وذاتَ الشّمال، هو البحرُ عندما لا تَستطيع مواجهته حاولْ أن تكونَ أحد أجِنداته، انغمسْ فيه كعنصرِ مشاةٍ على هيئة موجة.

الجميع يعتقدُ أنّكَ البحر، وحدهُ يدركُ أنّكَ مجردُ رفاتٍ عائمة!

آرام:

_ليتَني لمْ أتعلّم السّباحة لأَخذتُ دورَ كومبارسْ، ومتُّ منذُ بدايةِ المَشهدْ، همْ أبطالُ المسرحيّةِ الحيّاتيّة، يتعذّبونَ حتّى النهاية.

وإذ!

بصوتِ البحر:

شفاهٌ كظيمةٌ عاطلةٌ عنِ الابتسامة، عيونٌ ثَملِةٌ، تترنَّحُ أحداقها، حلُمٌ مشلولٌ يتعكَّز، أملٌ أعرج.

أيا أنتَ

نعم أنتَ ذاتكَ

قطارُ الفرحِ فاتكَ

لْملمْ شَتاتكَ

اجمعْ فُتاتكَ

احزمْ نبضاتكَ

بكامل رفاتكَ

قِفْ.

قِفْ على ناصيةِ الحزنِ، واحتسي نخبَ الدّموع!

آرام يهمسُ في أذنِ السّماء :

_ندخلُ الحياةَ بصرخةٍ مدوّيةٍ، ثمّ نخرجُ منها بصمتٍ مريب،

نعومُ ثمّ نغرق، كذلك الشّراع كذلك الفلك، كتِلكَ القشّة التي أنقذتْ الغريقَ، وقصمتْ ظهرَ البقاء.

نُشرق حتى نَغرُب، ثم نغيّمُ كتلكَ الشّمس، كذلكَ الشُّعاع، كذلكَ الغمام، كذلك الظّل.

نبتسمُ ثمّ نضحك، ثمّ نبكي، ثُمّ نَسخر كطقسِ آذار.

نحلِّقُ

ثمّ نهوي

نبضةً

لهفةً

خيبةً

ورقةً

كذلكَ الخريف، كَتلكَ الأقنعةِ، كتلكَ الأحلام.

تتساقطُ تتساقطُ

أمنية.أمنية.أمنية.

يبدأُ آرامُ بالاستسلامِ، يسألُ نفسهُ لِمَ كلُّ هذه المقاومة!
فالموتُ ليسَ بتلكَ الجديّة، لماذا أموتُ وأنا مُنهك؟ لابدَّ من النّهاية مهما قاومنا، لقد فازَ رفاق الحُلُمِ عزرا ويوسف وسومر ووصلوا قبلي، الشّريطُ الأسودُ الذي نراهُ على زاويةِ صورِ الموتى، هو مجرّد وسام فوزهم في الوصولِ إلى خطِ نهايةِ الحياة.
آرام بصوتٍ مُنهك :
_التّلويحُ ابتكارُ الغرقى إذاً!
وداعاً أهلي
وداعاً رأسَ العينْ
وداعاً أيّها الخابور
وداعاً ميديا، ثم يستسلمُ للزّوال.

***

اللجوء الأخير
(ألمانيا مدينة فيتنبيرغ)

يستيقظُ آرامُ منْ غيبوبتهِ، وإذْ بغصنِ شجرةٍ تحتهُ وأشعةُ الشّمسِ تسطعُ فوقه، وهو على سواحل جزيرة ميتليني اليونانية.

يتذكّرُ آرامُ ذاك المشهدَ، وهو فيْ كامب مدينةِ هلبرشتات(Halberstad) في ألمانيا.

مدينة هلبرشتات(Halberstadt)عاصمة مقاطعة هارتس في ولاية ساكسونيا، شرقيّ ألمانيا.

تقعُ على طريق الإطار الخشبيّ الألمانيّ، وطريق ماغدبورغ تاله الحديدي.

يُذكر :

أنها تضررت بشدّة في الحرب العالميّة الثانية، إلّا أنّها لاتزال تحتفظ بالعديد من المباني التاريخية الهامّة والكثير من بلدتها القديمة.

إليها كان وصول آرام حيّاً، النّاجي الوحيد في رحلةِ الموتِ تلك.

هل تُراه قادراً على لملمة شتاته وأحلامه بعد كلّ تلك المصائب التي نزلت به ؟

فقد كانَ كابوسُ بؤسِ البحار كافياً لقتله آلاف المرّات، و لازال يتنفس وحيداً هواء تلكَ المدينة، هو لمْ يشعر أنّه واحدٌ بين أولئك البشر، بل كان أجزاءً متناثرة مع تناثر آهاتِ من غرقوا وما كان للبحر إلّا أنْ يبتلع أنينهم ويلفظهم من رحمته أشلاء.

أرواحٍ تُضافُ إلى صفحاتِ المفقودين، ليزداد رصيد الحرب والظلم والموت.

يستلقِي في غرفته في كامب هلبرشتات ولازالت أمواج البحر تتضارب في مقلتيه ، شاردة بعبراتِ وجعٍ لا يظنها ستنتهي يوماً ما.

مع مصيره الذي التقاه في كامب المدينة الصّامتة، إلّا من اختناقِ أنفاسِ المهاجرين وزفرات موتهم في صدره.

عليه الآن رغم ما حلّ به أن يتابعَ مسيرته، حيث سيقدم طلبَ اللّجوء أولاً إلى محكمةِ المدينة، ثمّ سيتمُ فرزهُ.

سيرى أناساً من شعوبِ الشّرق الأوسط الذينَ لاحقتهم الحروب، ودول أفريقيا أيضاً فروا من الفقر متواجدين هناك.

ما على آرام الآن سوى المواجهة وبيع المخطوطةِ لِتحقيقِ حُلمه ولِحسن حظّه لا يوجدُ في ألمانيا قانونُ طورائ، حتى يَتمّ تفتيشُه وكشفَ ما لديه.

ما عليه سوى الانتظار إلى حين يتم فرزه من الكامب إلى مدينة تُقرّرها المحكمة هناك.

***

تمر الأيام بلمح البصر ليستيقظ آرام في يوم جديد ولكنه مميز وخالٍ من الروتين الذي اعتاده في الكامب حيث ستتم مقابلة لجوئه في المحكمة.

كانَ آرام أنيقاً جداً.

كلَّ صباحٍ يرتّبُ الفوضى التي بِداخله، يرتدي قميصَ الصّدق، يُفرشي عقلهُ، يُلمّعُ أفكارهُ ويرشُّ على قلبهِ مزيلاً للحقد.

في محكمة اللّجوء وكل محاكم اللجوء في ألمانيا ترى قاضِياً ألمانيّاً بجانبهِ مُترجمٌ عربيّ، حيث ينهال عليك القاضِي بالأسئلة.ما سبب ترككَ لبلادك ؟ هل شهدت جرائم حرب أم لا؟ ممن هربت؟ .الخ.

مع الأسف أغلبُ إجاباتِ السّوريين : أنّهم هربوا منْ تنظيمِ"داعشْ" حيثُ صار هذا التنظيم شماعةً يعلقونَ عليها كلّ مصائبهم وكدرَ حياتهم.

الاحتباسُ الحراريّ سببه داعش! وعاصفةُ إليكسا سببها داعش!

وفيضاناتُ تسونامي داعش! متَناسيْنَ المسبّبَ الرئيسيّ الذي أوجدَ داعشْ، وكلَّ التّنظيمات الإرهابيّة، متناسين طُغاة الشّرق الذين أخرجوا هؤلاء من السّجون عندما احتاجوا إليهم، ليعيثوا بالبلادِ فساداً.

في محكمة هيلبرشتات يجلس مع القاضِي لتبدأ الأسئلة تنهال على آرام.

المسافة ما بين السؤال والإجابة هي الحقيقة.

القاضي الألماني :

_ما هو سبب لجوئك إلى بلادنا؟

آرام يجيب:

_سيدي القاضِي أنا منْ محافظة الحسَكة، قد لا تعرفها بالطّبعِ لا ألومك، فالسّوريُّ ابنُ الشّام أو حلبْ قد لا يعرفها!

فهي مدينةٌ شبهُ منسية كالحضاراتِ البائدة والرّبع الخالي.

سيدي القاضِي أنا من مدينةٍ تملك ثلثيّ ثروةِ سُوريّة، وأهلها لازالوا يعيشونَ تحتَ خَط الفقرِ في منازلَ من الطّين.

سيدي. في جنوبِ ألمانيا مناطق البايرن، أمّا عندنا مناطقُ جنوبِ الرّد.

إذ إنّ ميونخ عندكم بمثابة بلدة (السبعة وأربعين) عندنا.

(السبعة وأربعين):

بلدة تقع جنوب محافظة الحسكة في شمال سوريا.

تتبع البلدة إداريّاً لناحية الشدادي ضمنَ منطقة مركز الحسكة.

سيدي القاضي. أيُعقل أنْ تَجلبَ حكومتكم أبناءَ مدينةِ هامبورغ ليستلموا الوظائف ويأخذوا أرزاقها وأنتم جياعٌ لاحولَ لكم ولا قوة!!

يردف آرام :

_نحنُ أبناءُ المناطقِ الشّرقيّة معزولونَ كمناطقكم قبلَ هدمِ جدار برلين (عام 1990م).

سيدي ...

لقد تعرّضنا للقمعِ الممنهج ثقافةً وتاريخاً وحضارةً.

سيدي... أنا من بلادِ سومر وبابل وميديا وآرام.

سيدي القاضي.

كانَ من الأجدر بأجدادنا أنْ يلجأوا إليكمْ منذ نشوء الحركة التصحيحية لا منذ نشوب الحرب الحالية!.

أنا يا سيدي

من بلادٍ ينتَقلُ الحُكمُ فيها عن طريقِ الأجهزة التّناسليّة ودون واقٍ سياسي.

يخرجُ آرام منهكاً بعد تقديم إفادته لقاضي اللّجوء حيث كان على كتفيه إجابات شعب بأكلمه.

***

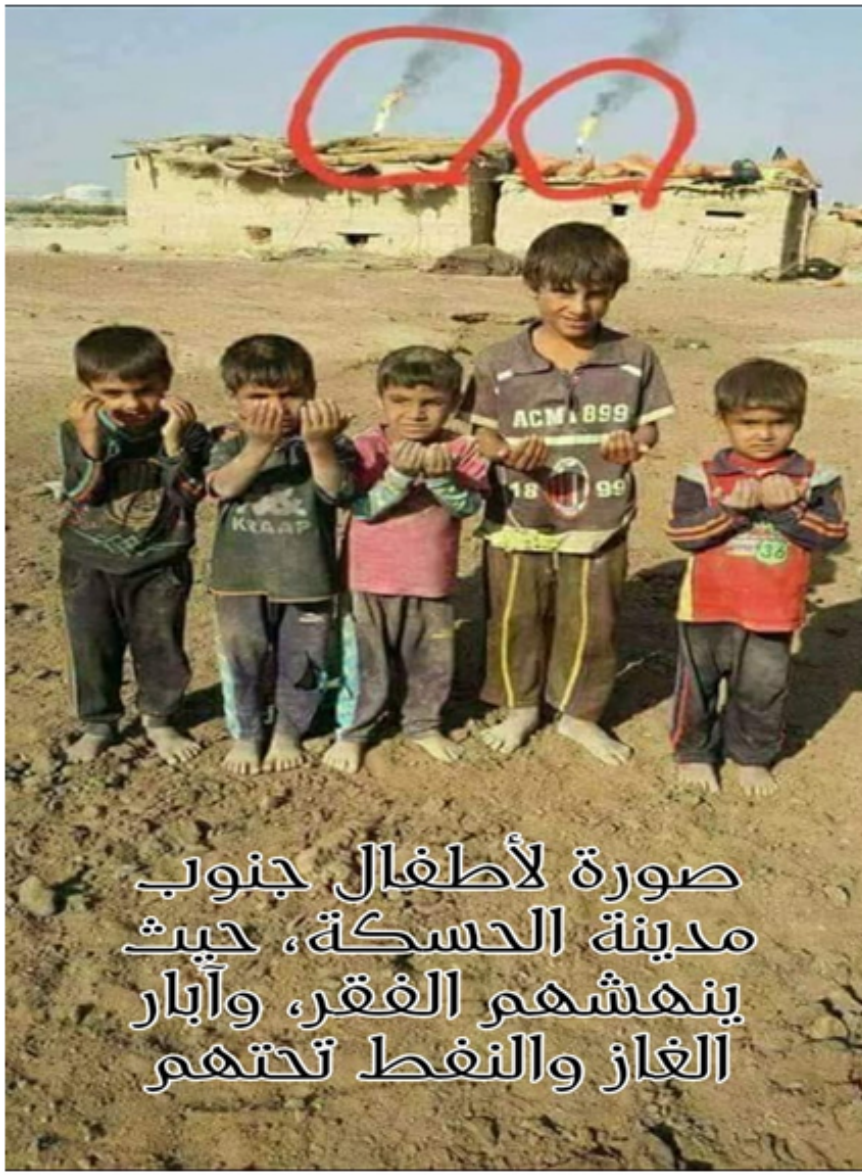
صورة لأطفال جنوب
مدينة الحسكة، حيث
ينهشهم الفقر، وآبار
الغاز والنفط تحتهم

صيف (2013) مدينة فيتنبيرغ (Wittenberg)أو كما تُسمّى (لوثر فيتنبيرغ) ، نِسبةً للرّاهبِ الإصلاحيّ (مارتن لوثر)، وليسَ للمُناضلِ الأمريكيّ (مارتن لوثر كينيغ).

_(مارتن لوثر) : هو راهبٌ مسيحيّ ومفكرُ لاهوت –علم الدّين– إصلاحيّ ألمانيّ، عُرِفَ بتأسيسِ المذهب البروتستانتي المسيحي.
ولِدَ في(10 نوفمبر/ تشرين الثاني عام1483)،وعاشَ في ألمانيا ما بين القرن الخامس عشر والسّادس عشر، شَهدتْ حياتهُ جدلاً وخلافاً كبيرين، بينه وبينَ سُلطةِ الكنيسةِ الكاثوليكيّة الأكثر انتشاراً آنذاك.
أظهرَ لوثر براعةً في التّعليم فدَرَسَ اللاتينيّة وبعض الدّراساتِ الدينيّة البَسيطةِ والفنون الحرّة.
أرادَ والدهُ الذي عَمِلَ في تِجارةِ النّحاس، أنْ يدّرسَ ابنه القانون وهذا ما امتثلَ له الابنُ النبيه، لكنْ سرعانَ ما وَجدَ شغفاً آخرَ وتركَ دراسةَ القانون (عام1505) ، واتّجهَ إلى سلكِ الرّهبنةِ في أبرشيّة (إيرفوتErfurt)في ألمانيا.

لقدْ تمّ فرز آرام إلى هذهِ المدينةِ التي لها مَكانةٌ تاريخيّةٌ عندَ الألمانِ بشكلٍ خاص، وأوروبا بشكلٍ عام ، عادَ بذاكرتهِ إلى الوراء وهوَ في القطارِ متّجهاً في طريقهِ نحوها.

يُحدِّثُ نفسه :

ـ يا لهذهِ الصّدفة! إنّها لا تَحدُثُ حتّى في الأفلامِ والروايات العالميّة، هذه مدينةُ "آدم " صديق يوسف (رحمه الله)، تباً لذلك الوغد لو أني أعرف مكانه لذهبتُ إليهِ ولقنته درساً لن ينساه طيلةَ حياتهِ، لولا خوفي من أنْ يَفتضحَ أمر المخطوطة التي معي لسألتُ عنه.

صحيحٌ أننا لم نلتقِ! لكني بالتّأكيد سأجدهُ وأقتصّ منهُ ، هو وجهُ الشؤم الذي عرّفَنا بذاك التّاجر المجرم.

وصلَ آرام إلى (فيتنبيرغ) حيثُ تمَّ فرزهُ إلى منزلٍ تابعٍ لمؤسّسةِ السوسيال (Sosial) : وهي مؤسّسة مهتمّةٌ بالأشخاص غيرِ القادرينَ على العمل، فهي تقدمُ المساعدةَ الماديّة لهمْ، بحدود (300 يورو) شهرياً.

بدأ الآنَ بمرحلةِ الاندماجِ في ألمانيا، هي منْ أصعبِ المراحلِ التي يعاني منها اللّاجئ!

فما بالكم به وهوَ بدويٌّ ابنُ ريفٍ مجبول بالقمحِ والشّعير، كيف له أنْ يندمج! وهوَ ابنُ مدينةِ الحسكة، تلكَ التي لم ينخرطَ أبناؤها في المجتمعِ السّوريّ وعاداتهِ، فكيفَ لهُ أنْ يتأقلمَ في أوروبا!

اعتقدَ آرام أنّ ألمانيا الشّرقيّة لها ذاتُ عاداتنا وتقاليدنا الشّرقيّة، فوجئَ بانتشار النّزعةِ النّازيّة فيها بشكلٍ لافتْ!!
أسوأ ما قدْ يواجهكَ، أن تُحاولَ الهربَ منَ البعثيّة لتصطدمَ بالنّازيّة.
مرّتْ تلكَ الأيّامُ وتَبِعتها الشّهور، حصلَ الرّجل على إقامةٍ مؤقّتة مدّتَها ثلاثُ سنواتْ، أصبحَ لديهِ شُقّتهُ الخاصّة بهِ، أمّنها لهُ (الجوب سنتر)، بدأَ بتَعلُّمِ اللغة الألمانيّة إذ التحق بمدرسةٍ هناك، كلُّ ما جَرى من تطوراتٍ يَقِظةٍ، والمخطوطة نائمةٌ في أحضانِ حقيبته الدافئة!

***

في إحدى ليالي غربته بينما هوَ ساهرٌ ، يضيءُ هاتفهُ مُنبهاً بوصول رسالة مفادها:
(أتعتقدُ أنّكَ فررتَ بجلدك؟ لنْ تَستطيعَ أيةُ دولةٍ في العالمِ حمايتك ومعكَ تلكَ المخطوطة! إن لم تُتلفها سَنتلفكَ قبلها، ونغرقكَ بدمائك كما أغرقنا صديقك عزرا.)

آرام:

ـيا إلهي هذهِ شبكةُ مخابراتٍ دوليّة، كيفَ عرفوا رقمي! اللعنة. إذاً كانوا يعلمونَ كلَّ تَحرُّكاتنا وهروبنا منْ أزمير، أغرقوا القاربَ لكي نغرق وتغرقَ معنا المخطوطة.

ما هذهِ المصيبة التي حلّتْ بي الآن!؟

لا بأس

سأحاولُ الوصول إلى ما أُريد أو أموتَ دونهُ ولو كلّفني الأمر حياتي.

في مواجهتِك للعاصفة يَجبُ أن تتعرى، في مواجهتك للعاصفة اِفتحْ ذِراعيكَ فالهزيمة هي الطّيران.

رباه!!

يتساءلُ متعجّباً بصمتٍ :

ـتُرى ما الذي كُتبَ عليها حتى اهتموا بها!

لم يعدْ يعنيني ثمَنها أريد فقط أنْ أعرف سرّ ما جاءَ فيها، عليّ الآن أن أعودَ إلى (1000ق.م).

وما الذي حدث في منطقتنا!

نضطّرُ أن نعودَ إلى الماضِي في أحيانٍ كثيرة لنخوضَ في تفاصيلِ المستقبل!

راح آرام يبحثُ في تاريخِ الحضاراتِ ما قبلَ الميلاد، من حضارةِ سومر إلى بابلَ إلى آشور. يقفُ عند الحضارةِ البابليّة والسّبي البابليّ لليهود (60 – 586 ق.م)، وهنا تُزاحُ أولُ ذرةِ غبارٍ عن المخطوطة.

فقد عَلِمَ أنّ عمرها الفعليّ يعود إلى ما قبلَ السّبي، وهذا ما قالهُ سومر وأكّدهُ التّاجر، هذا يدل على أنّها كانتْ مدفونة ، وما إنْ تمّ اكتشافها حتى قاموا بإعادة دفنها لسَببٍ ما!

هل أكونُ أنا الوريثَ الشّرعيّ للمخطوطة! فأنا من أيقظها منْ سُباتها الطويل!

يردفُ ضاحكاً متمتماً :

_حتى الحقيقةُ تنتقل عن طريقِ الوراثة (ومن الأفكار ما أضحكَ وأبكى).

نامَ بعدَ أن أنهكَ التّفكيرُ عقلهُ وجسده، يُتمتم هامساً بإرهاق:

_غداً عليّ الدوام في مدرسةِ اللّغة ولقائي مع (الجوب سنتر).

في ألمانيا نساءٌ شقراواتٌ طويلاتٌ، يُطلن العمر، ومنتزهات وبحيرات جَميلة.

لكنّ آلامه كانتْ تَسدّ عليهِ رمقَ الحياة، فكلّما وقفَ على حافّةِ النسيانِ، هبّتْ نسائمُ الذّكريات لتُلقِي بهِ في الدّركِ الأسفلِ منَ الحنين.

أدركَ آرام تماماً أنّ النّسيانَ ليسَ كبسة زرٍ نتعاملُ معه تِقنيّاً متى أردنا!.
بل هو منَ المَهمّاتِ المستحيلةِ، كأنْ تواعدَ نفسكَ، غداً سأبدأ من جديد، دونَ ذاكرةٍ مسبقة، لكن هيهاتَ هيهاتَ أنْ يوافقكَ النسيان أو يصادقك.
تحاولُ دائماً المُضيّ قُدُماً والبَدءَ بحياةٍ جديدةٍ مختلفة عمّا كنت سابقاً، ربّما تنجح!
ليسَ لأنّكَ أنتَ منْ تريدُ النّجاح بلْ يلزم عليكَ ذلك، لا سبيلَ للعودةِ إلى الوراء، ما مضى قد مضى، والحاضرُ يفرضُ نفسهُ عليكَ بقوة، فالذّاكرةُ تُخفي في جيبها ألفَ ذكرى تقْطنك.

الرفاق ،الحبيبة، الأهل.
لكن!
لا سبيلَ إليهم الآن.
لنفترض أنّهم غارقون في غفوتهم، إلى حين صحوتهم يوماً ما! من الواجب أنْ يغفو في الوقتِ الحاليّ، وأحمقٌ هو كلُّ من قال : أنّ الزّمنَ كفيلٌ بالنسيان.
كلّ ما في الأمر أنّنا نودعُ أحبّتنا منَ الذّاكرة، هنيهةً من الصّبر والقسوةِ، إلى أنْ يُعاودوا الرّجوعَ إليها في صَحوةِ اشتياق مباغتة.

في مدرسة اللّغة تَعرّفَ آرام على صديقٍ سوريّ، تقرّبَ منه يوماً بعد يوم، اسمه (سرمد) هو في العقد الثالث من العمر، ذو ملامحَ أوروبيّة أشقر الشّعر أبيض اللون عيناه ملوّنتان وبنيته ضخمة، لكنّ لهجته فراتية كلهجته تماماً.

وهذا ما أثارَ استغراب آرام ، إذ إنّ أغلبَ أهل الفراتِ يميلونَ للسّمرة والبعض منهم قمحيّو اللون ذَوو بشرةٍ حنطيّة. عندما سأله من أيّ المدن هو، قال إنّه من مدينة الرّقة السّورية، هذا ما جعل آرام يرتاح إليه، فالرّقة تُعتبر من المناطق الشّرقية في سورية حيثُ يجمعُ أبناءها اللهجةُ والعاداتُ والتقاليدُ الواحدة، فاستبشرَ بهِ خيراً كصديق يُعينه على وحشةِ اغترابه.

في ألمانيا يعاني أغلبُ اللّاجئينَ منْ صعوبة تعلم اللغةِ.

وبالنسبة لآرام تعلّم لغة ثالثة غير الإنكليزيّة والعربيّة الأم يعدُّ بمثابةِ فكّ طلاسمِ اللغة المسماريّة، وهذا ما أكّدهُ الكاتب الآيرلندي (أوسكار ويلد) عن صعوبتها حينَ قال: «الحياة أقصر من أن نقضيها في تعلُّم الألمانيّة».

الأديب الأمريكي(مارك توين) قال في كُتيّبٍ ألَّفه عن تجربته الفاشلة مع تعلُّم الألمانية سمَّاه «اللغة الألمانيّة المرعبة»:

«إن بإمكانِ إنسان موهوب أن يتعلَّم الإنجليزية في30 ساعة، والفرنسية في 30 يوماً، ولكنه سيستغرق30 عاماً في تعلُّم الألمانية».

(الكتابة المسماريّة :هي نوعٌ من أنواع الكتابة تُنقش فوقَ ألواحِ الطّين والحجرِ والشّمع والمعادنِ وغيرها، كانتْ مُتدَاولة بشكلٍ واسع بين الشّعوبِ القديمة، كالسّومريّنَ في بلادِ ما بينَ النّهرين، أي بلاد شرق سورية مسقط رأس آرام ، أولُ هذه المخطوطات اللوحيّة يعود لسنة(3000 ق.م.) وهذه الكتابة تَسبق ظهورَ
الأبجديّة منذ (1500 سنة). وبقيتْ هذه الكتابةُ هي السّائدة حتّى القرن الأول الميلادي).

اعتادَ آرام في كلّ يومٍ بعد عودته من المدرسة، أن يقرأَ في التّاريخ عن معلوماتٍ قد تغني تساؤلاته عن المخطوطة وأهميتها، وعاد اليوم ليدخل بماراثون البحث مجدداً، باحثاً عن بصيص نور، فقد توقّفَ ليلةَ البارحة عند السّبي البابليّ وكلّ ما حدثَ في ذلكَ الزمن، وفي أوجِ اندماجه بالقراءة استوقفه اسم عزرا، شدّ انتباهه فتابع بشغف ليعلم من هو عزرا ؟!
هذا الاسم الذي أثار شجون قلبه في لمح البصر، و كان كفيلاً بأن تتلاطمَ أمواجُ الذّكرياتِ كما فعلتْ أمواج البحرِ عندما ابتلعتْ صديقه منذ أيامٍ مضتْ.

هي الذّاكرةُ المغلقة، كبيتٍ مهجورٍ ما إن يفتح أبوابه طيفٌ عابر، حتّى يتحرّك غبارُ الشّوق ورطوبةُ الحنينِ منْ على رُفوفِ النّسيان، لتَسعل الرّوح الذّكريات. يعاود آرامُ الرّجوعَ إلى واقعهِ ويتابعُ مسيرةَ البحث في الحضاراتِ القديمة (سومر، آكاد بابل، آشور) محطاتٌ تُلامسُ الحقيقةَ التي بينَ يديه.

(عزرا عاش من (440_ 480) قبلَ الميلاد ويُلقّب بالكاتب لأنه خطّ الأسفار).

صرخ :

_رباه.يا إلهي!

أغلقَ الكتابَ بارتباكٍ تَلبّسَ أطرافهُ ثمّ أبعدهُ عنه وكأنّه قرأ تاريخَ اقترابِ أجلهِ!.

جالسَ شرودهُ لساعاتٍ وساعات دون حِراك!

كنصبٍ تِذّكاريّ لجندي بُتِرتْ قدماه.

مرّت ليلته على مهلٍ وكأنّها تسيرُ بمخالبِ الذئبِ على روحه.

لمْ يَنم فيها بلْ كانا هو وظلّه والخوف، يتبادلانِ أحاديثَ الأفكارِ الّتي تتردّد صاخبةً على خياله، وقد لا تخلو من تَرّقبِ الأسوأ.

حلّ الصّباحُ أخيراً، في تلكَ الليلة فقط شعرَ أنه قد تأخر كثيراً! فالشّروق أعيا عيون الانتظار.

وكعادتهِ اليوميّة خرجَ للذّهابِ إلى المدرسة، ليُصادف أمامَ منزلهِ جارهُ الألمانيّ

واسمهُ(أندرياس) من أبناءِ مدينةِ(فيتنبيرغ)، أبيضُ اللونِ، طويلُ القَامةِ، في عقدهِ الرّابع، لا يجمعهما سوى تحيّة عابرة كلّ حين.

أثارَ حفيظة آرام زيارة اللاجئين إلى منزلهِ بشكلٍ مستمر، و كأنّ بيتهُ مزار ديني!

تابع آرامُ طريقهُ إلى المدرسة وعندَ انتهاء الدّوام، عرضَ سرمد أنْ يرافقهُ إلى ساحة فيتنبيرغ للتّسوق.

وافقَ بلْ كانَ بحاجةٍ ليُرفّهَ عنْ نفسهِ المُرهقة.

من خلال رفقةِ سرمد واحتكاكه به في السّوق استغربَ آرام كيفَ يتحدّث مع أصحابِ المَحالِ التّجاريّة اللغة الألمانيّة بطلاقة.

يتمتمُ آرام متعجباً :

_كيفَ يَتظاهرُ في المدرسة بأنّه لا يعرفَ حتى الأحرفَ الألمانيّة والآن أسمعهُ يُتْقنها ببراعة!

يُحدثهُ في الطّريق :

ـ متى أتيتَ إلى ألمانيا يا سرمد!

ـمنذُ بضعةِ شهور.

آرام يهمسُ مستهزئاً :

ـبلْ قلْ بضعة قرون !

ثمّ يستطرد:

ـ كيفَ حالُ أهلك في الرّقة، بعد دخولِ داعش إليها!

ـأهلي على أفضل ما يُرام في ظلّ شرعِ الله الذي فَرضه هذا التّنظيم.

جوابهُ لم يَرقْ لآرام ولكنّه آثرَ التّجاهلَ، لعدم رغبتهِ بنقاشٍ عقيمٍ، بشأنِ هذا التّنظيم.

انتهى تسوّقهما وعادا أدراجهما، وفي طريقِ العودة اقترحَ آرام أنْ يذهبا معاً لإحدى المقاهي القريبة في المدينة.

طلبَ قهوته السّادة الممزوجة بمرارٍ شهيّ اللّذة، كلّما اختلط بحُلياته الذّوقيّة، تحسّسَ معها مرّ أيامه وعشقها.

هكذا كانت ميديا، شهيّة لاذعة الطِباع لكنّه يُفضلها، فهي الوجهُ الآخر للحياة في فنجانه وذاكرته وخياله.

ـميديا ثقي يا حبيبتي طالما أننا لم نكتمل يوماً ، فإننا لنْ نفترق أبداً.

شارداً بقهوتهِ يُكلّمها مبحوحَ الشّوق لصورتها الحاضرةِ في وجدانه.

معتادٌ هو أن يُغازل البنّ والهال كلّما حضرتْ طيفاً عاجياً يرسمهُ وجهُ قهوته الخائنُ له، الوفيُّ لطقوسها.

أمّا سرمد، أخذ عصير الليمون.

يبدو أنّه ليسَ عاشقاً، بل مُصاباً بإنفلونزا البرد، كمْ أحسده!

فذاكَ المرضُ يشفيهِ الليمون، ولكنْ ماذا عن إنفلونزا الشوق! تُرى هل يداويها فنجانُ قهوة!

يَهمس آرام محدثاً نفسهُ مُخفِياً ابتساماته عن سرمد، خوفاً أنْ يقول هلْ جُنّ الرجل!

يبدأ حديثه بنظرةٍ حادّة للبٍّ عينيّ سرمد وبنبرةٍ قاسية

يسأله :

_وماذا عن داعش يا صاح! أقصد تنظيم داعش الإرهابيّ الذي تكلّمت عنه ونحن في السّوق.

_اسمها دولة الإسلام وليستْ بداعش! يا آرام.

نعم ! ما الذي أربكَكَ! تفضّلْ أنا لا أعارض أيّ نقاش، بل مستعدّ لهُ وبرحابةِ صدر.

_حسناً إذاً أودُّ أن أقول لكَ. إنّ هذا التّنظيم صنيعة مخابراتٍ دوليّة، ألم ترَ ما الذي فعلوه بمدينتك من دمار؟

_وماذا تقولُ عن إرهاب ستالين الملحد الذي قتلَ الملايين، وأفران هتلر، والهولوكوست ؟

وماذا عن إرهاب الأسلحة النوويّة كما في هيروشيما ؟

أهكذا يا صاحبي تؤيّدون الإرهاب شريطةَ أن يكون بشعر"سبايكي" ومايوه وبدون لحِى!

_وكأنّك تُبرر الإجرام الصّغير بإجرام أكبر، يا سرمد!

من يبرّر الجريمة، هو أشدّ جرماً من مُرتكبها! اعلمْ أن هذا التنظيم مصيره إلى الزّوال.

_منَ الممكنْ أن تَقتلَ شخصاً وحتماً لن يعود ، أمّا الفِكر إنْ قتلته! فإنه يرجع إلى الحياةِ بطرقٍ ثانية وثالثة وعاشرة. يردّ مستهزئاً!!

_انظر مثلاً إلى أبناء هذه المدينة نسبة كبيرة منهم يتمنّون عودة النازية.

_كونكَ تؤيّد هذا التّنظيم الراديكالي، لماذا لا تذهب وتقاتل معهم؟

أم أنك كمن يستلقِي على شواطئ ميامي، مستجمّاً يشغله أن يتلوّنَ جلده تحت أشعة الشّمس البرونزية!

ثمّ ينادي بإقامة خلافةٍ إسلاميّة!

_أنا وحيد لأهلي يا آرام ، وجهادي الآن أنْ أرسلَ إليهم حوالاتٍ ماليّة تُعينهم على صعوبةِ العيش ، وإلا ما كنتُ الآن هنا معك، نتجادلُ كالحمقى في شؤونٍ لا تُسمن ولن تُغني من جوع.

_صدقتَ يا سرمد.

عاد آرام لهدوئه وأكملا دقائق أخرى في ذاك المقهى، ثمّ غادرا.

فورَ عودةِ آرام إلى منزلهِ، بدأتْ السّماء تبلّلُ الأجواء بهطولها.

_طقسُ فيتنبيرغ مزاجيٌّ يشبه حبيبتي ميديا!

يقفُ على نافذتهِ يعزف بصوته مع دندنات رذاذِ المطر بهدوءٍ متأملاً.

_وما الغيثُ إلّا حاصلُ عناقٍ غيمتينِ بعد الفراق، فتهطلُ دمعة.

وما المُطر إلا حليبُ السّماء من نهدِ الغمام لإرضاع الشّجر. قطراتهُ كأنها ضرباتٌ حفّزتْ ذاكرة الشفاهِ فتداعت لها الذّكرى بالقُبل.

ألقُ الدّهشةِ أولُ الخريف والابتسامة المتورّدة على تينك الشفتين، ووجهها المُتسمّر وهي تفرح، مطر مطر مطر.

يراها بين رعشات الأرض وابتسامات الزهر ورقصات المطر فيناديها قائلاً :

_ يعزف النّسيم بأنامله الرّقيقة على أوتارِ الرّوح أنشودة المطر على حين برقٍ، نعانقُ صوتَ الغيثِ المنهمر، ثمّ نقابِله بوابلٍ منَ القُبلْ.

أيا ابنةَ النّدى.

تعالي لنخطو سويّاً الخطوة الأولى في مسارِ العشقِ السّرمدي دونَ ظلالٍ وغيرَ آبهينَ بما وراءنا، تعالي لنرصدَ القطراتِ قطرةً قطرة، والقلب ينْبضُ نبضةً إثرَ نبضة، ونحرّك بروحينا غريزة الغمامِ، فيتساقط المَطر

أكثرَ وأكثرَ

على جَسدينا!

على روحينا!

في قلوبنا!

لنسقط

ونسقط

صرعى الهوى

صرعى المطر.

***

في يوم ليس كغيره من الأيام بينما كان آرام عائداً من المدرسة وإذ يجد سرمد واقفاً أمامه! يتمتم آرام:

_هذا الرجل يختلق الصدف، ألم يعلم بأننا في مرحلة ما من حياتنا تمتلئ قائمة الأصدقاء لدينا، وأية صداقة جديدة هي بمثابة الزائدة الدودية.

يتجه الاثنان صوب المنزل وعند وصولهما، كان أندرياس ينتظر أحدهم، هكذا بدا عندما رآهما قادمين.

آرام :

_هذا الرّجلُ غريبُ الأطوار، وكأنَّ منزله استراحة للاجئين.

سرمد:

_هذا الرّجل يبيعُ (المارجوانا) للّاجئين والألمان، منذ فترةٍ تكلّمتُ معه وعرفتُ أنّه ينتمي لعصابة من أصولٍ عربيّة في برلينْ، تُسمى (عصابَة الدّم) (Blutsbande) هي من تموّلهُ ليبيع المخدرات في فيتبيرغ.

لذلكَ يهتمُ باللّاجئين العرب ويدعمهم بالمخدّرات.

ثمّ يضحك مستهزئاً!

يردفُ آرامُ مرتبكاً :

_وهل يوجدُ في أوروبا عصابات كتلك! تصولُ وتجولُ بعلمِ الحكومة!

سرمد:

_نعم! وتقتُلُ أيّ شخصٍ متى أرادت.

_لا أخفيك يا سرمد أشعر بأنني مراقب ومستهدف في هذه المدينة.

يجيبه سرمد ببرود تام:

_الذي يعيش في المستنقعات يظن نفسه مستهدفاً كلما وقع عليه شيء.

إجابةٌ مُربكةٌ! جعلتْ آرام ينهي هذا الحديثِ ويقلبُ الصّفحة!

ودّع آرام سرمد، وفي صدرهِ غِلظة عليه، لم يبدو له مريحاً لقد أقلقه جداً التّعاملُ معهُ، بل على العكس، بدا شخصاً يثير الريبةَ والشّك!

بات آرام ليلته في حالةٍ يُرثى لها، شتاتٌ في الروح، وتَخَبُّطٌ في المشاعر، أنينُ مستقبلٍ، عاجزٌ هو الوصول إليه مقدارَ رعشةِ رمشٍ.

وليلٌ طويل، قد لا ينجلي إلا بانتزاع روحه من جسده!

لقدْ أيقنَ مستسلماً، أن تلكَ المخطوطة لا أملَ منها، وما من حلم سيرى النور على يديها بل نقيضُ ذلكَ تماماً!

ربما عليهِ أن يدفنها، قبل أن تُلقي باقي لَعَناتِها على البشريةِ أجمعْ.

يحدثُ نفسهُ قائلاً:

_على الحقيقةِ أن تعودَ إلى النّوم قد لا يكونُ هذا الوقت اللازم ليقظتها!.

قرر آرام بعدَ اقتناع كامل التّخلص منها، صار يُفكّرُ بطريقةٍ آمنة.

بقي ليومين في منزلهِ متوارياً عن الأنظار، معتكفاً بذاته يفكر ويفكرُ ثمّ يقرر!

وفي ليلِ اليومِ التّالي.

تَسلَّلَ إلى غابةٍ في (فيتنبيرغ)

تقعُ ما بينَ المدينةِ ومحطّةِ القطار، بدأ بحفرِ الأرضِ، وكأنّه يَحفرُ لميتٍ!

ومعَ كلِّ ضربةِ فأس يتذكّر أمه، عائلتهُ، وطنهُ، أصدقاءه، عزرا وسومر، يتذكّرُ ميديا أيضاً.

كان الحفر في الرّوح قبلَ التراب!

دفنَ الحقيقة العاتمة في رَحمِ المجهول، نفضَ الغبارَ والهمّ والأوجاع عنه، ثمّ مضى حراً من قيد أرّقَ حياته وكدَّرها!

عاد آرام مُنهكاً بعدَ مُنتصفِ تلكَ الليلةِ.

لكنّه لاحظَ

وكأنّ أحداً ما يراقبهُ من بعيد

لم يُعرْ اهتماماً لذلك، كانَ همهُ أنْ يعانقَ سريره وينام.

كمن تسلّق أحلامه، فلمْ يحظى حتى بدعابةِ نومٍ هادئة!

كان آرام أسيرَ كلّ تلكَ الحقائقِ.

يهمسُ في نفسهِ:

ـالسّيءُ في فكرةِ الموتِ، عدم استشارتكَ بالطّريقةِ التي تُحّبذ أنْ تموتَ بها، أنا مثلاً: أحبُّ أنْ أموتَ بسيّارِة فيراري إيطاليّة يقودها انتحاريّ، لا بعلبةِ سارين (غاز السارين) تُلقيها طائرةٌ طاغية، السّيئُ فيهِ أنّهُ لا يأتيك دفعةً واحدةً، بلْ يأتيكَ على دَفعاتٍ لتموتَ بالتّقسيطِ المُّمل، كعروضٍ صيْفيّةٍ لشراءِ الهواتفِ الحديثة.

الجميلُ في الموتِ! أنّه يُعطيكَ حرّيّتكَ المطلَقة، ويَفُك قيدَ الحياةِ عنْ مِعصميك، ويقوم بفصل قاطعِ عقلك عن جسدك لترقدَ الرّوحُ بسلام!

أجملُ ما فيه، هو أنْ تموتَ بمرضٍ نادرٍ فيُسمى باسمك (داء آرام)!

وينتشرُ اسمكَ في جميعِ دولِ العالَم، وتتناوبُ المذيعاتُ الشّقراواتِ على ذكرِ اسمك!

ومن رفاهيته أيضاً!

أنّكَ توضعُ في حفرةٍ تحتَ الأرضِ، دونَ أن تدفعَ أيّ ضريبةِ كهرباءِ! أو فاتورة ماءِ!

الجميل في الموت. أنه قرارٌ سماويٌّ غيرُ قابل للطّعن عن طريقِ النقض.

الجميل في الموت هوَ شيءٌ مُكرّرٌ، والأشياءُ المكرّرةُ لا تخيف! فكلّ شيءٍ يموت، حتّى فكرتهُ في حدّ ذاتها تُصبحُ عدماً في عقولِ الموتى، فالموتُ فكرةٌ والفكرةُ تموت!

نحن لسنا عالة على الأرض فنحنُ نموت كيْ نُفيدَ الأرضَ بِجُثَثنا المُتحللَّة، هناكَ كائناتٌ تحتَ الأرضِ جائعةٌ أيضاً، تنتظرُ لتُطعمَ صِغارها!

بعد ما خاطرَ نفسه بكلِ تلكَ الأفكارِ التي راودته، استلَّ قلمهُ الوحيد الذي لم يخذله يوماً.

وبدأَ بكتابةِ رسائل، تلفظُ أنفاسها في أنامله وكأنّه يكتبها مودعاً!

إلى نهر الخابور:

الماءُ ليسَ لهُ طعمٌ أو لونٌ أو رائحة، أكبرُ كذبةٍ علميّة صدَّقتها البشريّة! الذي يتذوّق ماءَ الوطنِ، لنْ تُرويهِ جميعُ بحارِ الأرض، منْ ذاقَ زلال ماءِ الفيجةِ، لنْ يرتوي لو شَرِب ماءَ بحرِ إيجة، رائحةُ ماءِ نهر الخابور، تختلفُ عن رائحةِ نهرِ الدّانوب، جفاف شاطئ زركان أجملُ من ضفافِ نهر نيمان.

العطشُ ليسَ فقطْ للماء!

فهناكَ عطشٌ لشخصٍ

للمسٍ

لهمسٍ
يمكن أنْ تموتَ عطَشاً وأنتَ مرتوٍ!

رسالةٌ إلى أمّي :
لقدْ كَبرتُ يا أمّي، وتزوّجتُ منَ الغربة، أنا الآن أبٌ لثلاثِ خيباتٍ وحزنٍ دفين!
كبرتُ يا أمّي، هكذا يقولونَ لي رغمَ أنّني لازِلتُ طِفلاً أحبو على قلبي!
كبرتُ يا أمّي، وأصبحتُ أذهبُ إلى طبيبِ الأسنانِ السّفاح، و أترحّمُ على خيطكِ السّحريّ الذي اقتلعتِ به جميع أسناني.
لقد كبرتُ يا جنّتي، وأصبحَ عندي أصدقاء يموتون، ورأيتُ بأمِّ عيني أناساً يوزّعون الجنّة والنّار علينا، وسمعتُ الشّيطانَ يتعوّذ من الإنسان!.
كبِرتُ يا أمّي! دونَ إرادتي وأصبحتُ أعرِفُ طريقَ الخيبةِ وحدي.
لقد كبرتُ يا أمي
ألا ترين!
انظري
انظري
هذه أوّلُ شيبةٍ تجتاحُ سورَ طفولتي.

رسالةٌ إلى حبيبتي ميديا:

سيقض طيفي مضجعك.

ستوقد ملامحي عباءة كبريائك

سيستبيح عطري أنف ذاكرتك.

ستستفزك ورقة خريف مستلقية وقطرة مطر متكئة على غيمة، وبحّة كمنجة وأغنية.

ستجتاحك نسمات الغروب العليل ودندنات الزمن الجميل وترنيم نجاة "أسألك الرحيل".

ستصبحين طقساً بأربع فصول شمس وغيمة ووهج وهطول.

لا ذنب لك فقد تركت ورائي من يمثلني في غيابي، فأنا لست برجل ينسى، أنثر بذور ملامحي على سفوح ذاكرتك وأترك الغمام يتكفل بزرع التفاصيل، رجل تفاصيل أنا إن غادرتك لن أغادرك.

رسالتي إلى الحقيقة:

أعتذر لأنّني أيقظتكِ من سباتكِ الأبديّ، لم أعرف أنّه زمنُ الأوغادِ وكلُّ السّلامِ فيهِ أن نسيرَ بجانبِ الجدار ونطلب من اللهِّ السّلامة.

أمّا زمنُ الشُّجعان ربما ولىّ مُدبراً

إلى غير عودة!

أعتذر لأنّني أخرجتكِ من وطنك ودفنتك بينَ أحضان ترابٍ غريبٍ عنكِ.

نامي قريرةَ العين الآن.

لابدّ من سطوع آخر، يكونُ كشمس آب.

بعد مرورِ ثلاثةِ أيّامٍ رائحةٌ مزعجةٌ تفوحُ من منزلِ آرام ينتبه لها كلّ منْ في الجوار.

خلعت الشّرطةُ بابَ منزلهِ لتجدهُ قد ماتَ شنقاً!

سرمد (آدم) مخاطباً أندرياس:

_لقدْ تمّتْ المهمّة وقتلَ نفسهُ متعمداً، يضحكُ منتصراً_عليكَ البحث عن تلكَ المخطوطة، أمّا أنا فلديَّ مهمةٌ في الموْصل، فقدْ دخلَ تنظيمُ الدّولة متاحفَ العراق.

هامش

هل مات آرام منتحراً ؟

فشروط الانتحار حاضرة وبقوة، إذ مر بضغوط نفسية مشجعة على الانتحار؛ أم أنه قُتل ؟

وشروط القتل أيضاً حاضرة، فقد تعرض للتهديد والمراقبة من قبل مخابرات دولية.

في الجزء الثاني من الرواية ستدور الأحداث في أوروبا حيث أيادي المخابرات الدولية بمساعدة المخابرات السورية وتنظيم داعش، تقوم بنقل الآثار خارج الأراضي السورية، حيث يقوم التنظيم بتدمير قطع أثرية مزورة أمام الإعلام وتقوم المخابرات بنقل الآثار إلى أوروبا.

في الجزء الثاني أيضاً هل تستيقظ الحقيقة من سباتها في فيتنبيرغ مرة أخرى؟

***

"الفهرس"

_الحقيقة النائمة (الحسكة ريف رأس العين)...6

_على خُطى الحُلم (اسطنبول كولسيو)...44

_أحلام عقيمة.....111

_اللجوء الأخير (ألمانيا مدينة فيتنبيرغ).....130

***

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع